

حراء

مجلة علمية ثقافية فصلية

www.hiramagazine.com

- مهندسو الروح.. الربانيون - فتح الله گولن
- التقديس ثمرة لحرية البحث - أ.د. محمد سعيد رمضان البوطي
- النموذج الإسلامي لتحرير المرأة - أ.د. محمد عمارة
- الجيل القرآني وبنائه العلمي - أ.د. زغلول النجار
- محمد إقبال وبتدیع الزمان النورسي - أ.د. حسن الأمراني
- جمالية التعريف القرآني بالله - أ.د. فريد الأنصاري



حراء

مجلة علمية ثقافية فصلية

www.hiramagazine.com

العدد السابع - السنة الثانية (أبريل - يونيو) 2007

مجلة علمية ثقافية فصلية تصدر عن:

Işık Özel Eğitim Tic. Ltd. Şti.
İstanbul / Türkiye

صاحب الامتياز

أنس أركنه

mergene@hiramagazine.com

المشرف العام

نوزاد صواش

nsavas@hiramagazine.com

رئيس التحرير المسؤول

حسام الدين السيد

hosam@hiramagazine.com

مدير التحرير

أشرف أونن

eonen@hiramagazine.com

المخرج الفني

مراد عرباجي

marabaci@hiramagazine.com

المركز الرئيس

HİRA MAGAZİNE

Emniyet Mah. Huzur Sok.

No:5 34676 Üsküdar

İstanbul / Turkey

Phone: +902163186011

Fax: +902163184202

hira@hiramagazine.com

الإشتراكات/مركز التوزيع

٧ ش.الرامكة - الحي السابع - م.نصر/القاهرة

تليفون وفاكس: +2022619204

المحمول: +20127874552

جمهورية مصر العربية

sub@hiramagazine.com

الطباعة

مطابع الأهرام التجارية / قلوب

جمهورية مصر العربية

رقم الإيداع

١٨٧٩-١٣٠٦

التصور العام

- حراء مجلة علمية ثقافية فصلية تعنى بالعلوم الطبيعية والإنسانية والاجتماعية وتجاوز أسرار النفس البشرية وآفاق الكون الشاسعة بالمنظور القرآني الإيماني في تألف وتناسب بين العلم والإيمان، والعقل والقلب، والفكر والواقع.
- تجمع بين الأصالة والمعاصرة وتعتمد الوسطية في فهم الإسلام وفهم الواقع، مع البعد عن الإفراط والتفريط.
- تؤمن بالانفتاح على الآخر، والحوار البناء والهادئ فيما يصب لصالح الإنسانية.
- تسعى إلى الموازنة بين العلمية في المضمون والجمالية في الشكل وأسلوب العرض، ومن ثم تدعو إلى معالجة المواد بمهنية عالية مع التبسيط ومراعاة الجوانب الأدبية والجمالية في الكتابة.

شروط النشر

- أن يكون النص المرسل حديثاً لم يسبق نشره.
- ألا يزيد حجم النص على ٢٠٠٠ كلمة كحد أقصى، وللمجلة أن تلخص أو تختصر النصوص التي تتجاوز الحد المطلوب.
- يرجى من الكاتب الذي لم يسبق له النشر في المجلة إرسال نبذة مختصرة عن سيرته الذاتية.
- تخضع الأعمال المعروضة للنشر لموافقة هيئة التحرير، ولهيئة التحرير أن تطلب من الكاتب إجراء أي تعديل على المادة المقدمة قبل إنجازها للنشر.
- المجلة غير ملزمة بإعادة النصوص إلى أصحابها نشرت أم لم تنشر، وتلتزم بإبلاغ أصحابها بقبول النشر، ولا تلتزم بإبداء أسباب عدم النشر.
- تحتفظ المجلة بحقوقها في نشر النصوص وفق خطة التحرير وحسب التوقيت الذي تراه مناسباً.
- النصوص التي تنشر في المجلة تعبر عن آراء كُتّابها، ولا تعبر بالضرورة عن رأي المجلة.
- للمجلة حق إعادة نشر النص منفصلاً أو ضمن مجموعة من البحوث، بلغته الأصلية أو مترجماً إلى أي لغة أخرى، دون حاجة إلى استئذان صاحب النص.
- مجلة حراء لا تمنع في النقل أو الاقتباس عنها شريطة ذكر المصدر.
- يرجى إرسال جميع المشاركات إلى هيئة تحرير المجلة على العنوان الآتي:

hira@hiramagazine.com

التفكير السليم

لا عشوائية في الكون، ولا فوضوية في الوجود، وكلما أمعن العقل البشري النظر فيما حوله رأى الهندسة الرائعة، والبناء المحكم الحكيم. أما ما نلمسه اليوم من عشوائية في التفكير، وفوضوية في الفكر، فتتأتى من عمى ذهني تصاب به الأمة على حين غرة عندما يتألم الإعياء عن حمل أمانة التفكير السليم، وعندما يهدم توقفاً إلى الحقيقة، ويضعف شوقها إلى المعرفة. وقد يطول هذا العمى الذهني أو قد يقصر، ولكنه في كلا الحالتين لا بدّ من أن ينهض من بين صفوف الأمة رجال فكر ينفخون في "صور" الإيقاظ لتنهض الأمة من جديد وتعود لتمارس عملية التفكير السليم.

وهؤلاء الرجال يلزمون أنفسهم برسم الخارطة الفكرية والروحية للأمة على أسس من عقيدتها وتاريخها وروح العصر وتوجهاته الفكرية والثقافية والحضارية. إن إنقاذ الأمة من فوضويتها الفكرية، وبعث فكرها الأصيل بموازنة الدقيقة يجعلها قادرة على امتلاك ناصية نفسها، وفي الوقت نفسه امتلاك المدخل إلى العقول الفهيمة المدركة. فمقال أستاذنا الشيخ فتح الله كولن "مهندسو الروح... الربانيون" المتصدر هذا العدد من حراء يضع أسس هذا البناء الفكري والروحي للأمة بروحية المهندس البار الذي لا تفوته شاردة ولا واردة من مستلزمات هذا البناء المرتقب. إنه يفتح أفكارنا وبصائرنا لنرى الأعمق من كل شيء، ويريدنا أن نكون للعالم عيناً، وللكون قلباً، وأن نكون ربانيين وألاً نكون حبيسي الفانيات، ضيقي الآفاق، مسطحي التفكير، ويربأ بنا أن نكون ضحليين نهاب الأعماق، ونخوض في الضحضاح من الشيطان.

وأما الشيخ الأستاذ الفاضل محمد سعيد رمضان البوطي فإن مقاله في هذا العدد مكرس لتفنيد نوع من أنواع هذه العشوائية التي تظن أن "التقديس" مصدره حرية البحث بينما هو ثمرة من ثمار هذه الحرية. والأصالة كذلك هي المحور الذي يدور حوله مقال الدكتور بركات محمد مراد ولزومية هذه الأصالة في التجربة التربوية في التراث الإسلامي.

وأما الدكتور "زغلول النجار" فيحدثنا عن الجيل القرآني وبنائه العلمي، وأما الأستاذ الشاعر والأديب حسن الأمrani فإنه يعقد مقارنة بين عملاقين من عمالقة الفكر الإسلامي هما "الأستاذ بديع الزمان سعيد النورسي" والشاعر الكبير "محمد إقبال"، إلى جانب مقالات أخرى يضيق المجال عن استعراضها في هذا التعريف المختضب.

ونأمل أن تقدم "حراء" في كل عدد وجبة من الغذاء الفكري يسدّ بعض ما نشكو منه من مجامع روحية وفكرية لا زلنا نعانى منها الشيء الكثير والخطير. ■

المحتويات

- مهندسو الروح.. الربانيون / فتح الله گولن..... ٢
- التقديس ثمرة لحرية البحث وليس مصادرة لها / أ.د. محمد سعيد رمضان البوطي..... ٥
- أصالة التجربة التربوية في التراث الإسلامي / أ. د. بركات محمد مراد..... ٧
- مناجاة أم / أمين مانيسالي..... ١١
- عمق الأواصر بين الرحلة والدين في الثقافة الإسلامية / د. الحسن الغشتول..... ١٣
- الخط العربي.. ذروة الجمال وقمة الإبداع / أحمد عبيد..... ١٧
- النموذج الإسلامي لتحرير المرأة / أ.د. محمد عمارة..... ٢١
- الإحساسية في فن بديع الزمان النورسي / أ.د. عشراقي سليمان..... ٢٥
- البيئة في القرآن الكريم / د. إبراهيم أوزدمير..... ٣٠
- أنا لسان عبد الله / أ.د. عرفان يلماز..... ٣٤
- الجيل القرآني وبنائه العلمي / أ.د. زغلول النجار..... ٣٨
- محمد إقبال وبديع الزمان النورسي / أ.د. حسن الأمراني..... ٤١
- جمالية التعريف القرآني بالله / أ.د. فريد الأنصاري..... ٤٥
- من أجل بناء إنسان سليم / ناهد عبد المنعم..... ٤٩
- الفروق الفردية في العمل المشترك / د. سليم آيدين..... ٥١
- إلى جبل قاف / محمد أويار..... ٥٥
- شعرية الإصلاح في أدب مصطفى صادق الرافعي / د. عبد السلام أقلمون..... ٥٨
- صلاة... / عمر بهاء الدين الأميري..... ٦١
- اسم "هامان" معجزة قرآنية / أورخان محمد علي..... ٦٢
- آثار الرسول في جناح الأمانات المقدسة / حراء..... ٦٤

مكتبة
الهدى
للدراسات
الاسلامية



مهندسو الروح . الربانيون

فتح الله كولين

نشربنا للحياة في الإيرادات والعزائم الأخرى، وفي دفعنا للقلوب الأخرى نحو الأعمالي والذرى؛ كما نرغب دائماً في أن نكون ضمن السعداء الذين يتصدون للحرائق بصدروهم ويعرضون عن المنافع الذاتية دائماً. وبدهي أن الطبع الأخلاقي في سلوكياتنا وتحركاتنا موصول بهذا النمط من الشعور بالمسؤولية التي انغرست عروقها عقيدةً في نفوسنا فصارت غاية أرواحنا المنشودة.

نعم، إن هذا النمط من الشعور بالمسؤولية وعزيمة المهمة العالية وإرادة القيادة الإرشادية، التي تتعدى حدود فرديتنا دائماً، والتي تشكل أكثر المقومات حيوية في النظام الشامل للعالم كلاً وجمعاً، وأهم مصدر للأمان الكوني.. هذه المسؤولية والعزيمة والإرادة هي الأساس الوحيد لخلاصنا، كما هي الصوت النافذ واللسان البليغ الذي ينشر الروح والمعنى اللذين تحتاج إليهما الإنسانية جمعاء.

ولسن يدرك الخلاص ألبتة، أولئك الذين يديرون ظهورهم للوجود كله وللنظام العام، فيهدرون أعمارهم في ظلمات متاهات الأناثية. ودع عنك إدراكهم للخلاص، فكم تسبب هؤلاء في

قد يحبط بعضهم شفثيه استخفافاً إذا ما ذكرت القيم الأخلاقية والأعماق الداخلية للإنسان وأهمية الحياة القلبية والروحية؛ لكن ما من شك في أن السبيل الواصلة إلى الإنسانية الحقيقية تمر عبر هذه القيم والحركات السامية. ومهما كانت ظنون وتصورات البعض منا، فإنه ليس اليوم أمام إنساننا المعاصر الذي انقصم ظهره تحت ثقل أزمات اجتماعية واقتصادية وسياسية وثقافية مختلفة، وناء يحمل حداث عديدة في آن واحد، إلا طريق واحد ينقذه من الكروب والملمات المتوالية؛ وهو تفعيل هذه الحركات في كافة أنحاء الحياة. وإن تنفيذ هذه المهمة الحيوية لا يمكن أن يتم إلا على أيدي ربانيين لا يهتمون بأنفسهم أبداً، ولئن اهتموا فلأنهم يؤمنون بأن خلاصهم هو في إنقاذ الآخرين.

ونحن نرى -ونعني بذلك حقيقة الإسلام- أن خلاص الفرد عند الله موصول بأن يكون مخلصاً. وكذلك نرى أن سلامة مستقبلنا البعيد والقريب في كوننا ملجأً للأرواح الأخرى، وفي

ق



وإن القرآن وصاحب القرآن حين يحدثنا عن بطل القلب، يؤكد أنه رجل الحقيقة وإنسان الروح الذي يرى ويفكر ويتصرف بكل وحدات الوجدان؛ إذ إن قيامه وقعوده رحمة، وقوله رفق ووثام، وأحواله كلها رقة ولطف... بطل القلب وعاشق الحقيقة الذي عرف سر الوجود في أعماقه وكان مثالا حيا وترجمة صادقة لمعنى الحياة وحقيقتها.

إن الغاية المنشودة لرباني كهذا هي تحقيق أمور ذات شأن عظيم مثل الانتقال بالأرواح كلها إلى التواجد الأبدي، وتقديم إكسير الخلود إلى الجميع، والتجرد المطلق عن رغبات نفسه ومنافع ذاته ومخاوفه المستقبلية ثم الإحساس بوجود الله حاضرا سواء أثناء مراقبته لأعماق النفس المكونة أو انطلاقه في آفاق الكون الشاسعة. إنه حامل قلب نبوي مهموم بهموم الغير، يترفع على بؤسه البدني والجسماني، فيخطط لسعادة البشر حوله، ويرسم البرامج نقوشاً من أجل أمان وسعادة المجتمع الذي ينتسب إليه، ويعتريه خفقان بعد خفقان لعذاب الإنسانية وبؤسها، وأتمته بالأخص.

وهو في صراعه مع المساوي التي أحدثت بالبشرية ولا سيما بأمتنا له أسلوبه الخاص؛ فبدلاً من أن يسلك طرقاً مسدودة كما يفعل البعض حيث يستنفدون الوقت والطاقة بتعداد ورسم المساوي والأباطيل رسماً مفصلاً يعكس نقاء العقول الصافية ويُضللها؛ يقوم هو ويقعد مهموماً بإنجاز المشاريع التي ينبغي إنجازها، وينتقب عن حلول دونما توقف أو ملل، ولا يني عن مدهمة المعضلات والمشاكل ومواجهتها بحب عميق لمهمته وحرص على المسؤولية وشعور بـ"الإحسان"...

فهو بطل عزيمة لا توجد إلا عند الأنبياء... بطل عزيمة يلحق بجناحي عجزه وفقره، ويتحفز بالشوق والشكر، ونحن أننا تحت مسؤولية إحياء معنى "الانسجام الكوني العام والحقيقة العظمى". وإنما لمسؤولية عظيمة تشمل كل مسألة تدخل في إطار إدراك الفرد وإرادته الشاعرة. مسؤولية إزاء الوجود والحوادث... ومسؤولية إزاء الطبيعة والمجتمع، والماضي والمستقبل، والأحياء والأموات، والشيب والشباب، والقارئ والأمي، والإدارة والأمن... ومسؤولية إزاء كل إنسان وكل شيء.

وإن الإحساس بثقل هذه المسؤوليات وآلامها في القلب، والاستشعار بها في الروح خفقاناً بعد خفقان هو جزء من جدول أعماله اليومية يتبارى ليحوز على الموقع الأول في السبق. وأظن أن

هلاك من أحسن الظن بهم. والمشاهد أن المراحل التي أحرزت الإنسانية تقدماً فيها هي مراحل تصالحها وانسجامها مع الوجود. ومن ثم ينبغي اليوم أن يترك هؤلاء الذين يرمجون لمسيرة المستقبل الأنانية جانباً، ويضعوا أيديهم في أيادي كل إنسان وكل شيء بالضرورة واللزوم. إذ ستبلغ الغزائم والغايات والرؤى قيمتها الحقيقية بقدر حصولها على مساندة الهيئات المتكاملة والعزائم المتوحدة والمشاعر المتضامنة في أتم المعايين. فالطريق الوحيد للتحويل من الفردية إلى الجماعية، ومن القطرة إلى البحر، ومن ثم بلوغ الخلود، هو الفناء بالذوبان في الآخرين والاندماج بهم بالانصهار فيهم، من أجل إحيائهم والحياة معهم.

ومن مقرب آخر، أن يكون الإنسان "إنساناً" وفق الغاية التي استهدفت من خلقه، مرتبط بخضوعه لأوامر قلبه وانصياعه لروحه، رغماً عن بدنه وجسمانيته و"عقل معاشه" الدنيوي. فعلى الإنسان أن ينظر إلى كل شيء وكل أحد بعين القلب، ويقيمه بموازين القلب المتأهلة للاعتبار والتقدير لكي يعرف نفسه وما حوله حق المعرفة. ولا ينبغي أن ننسى أن الذي لا يحافظ على طراوة قلبه وصفوة روحه في كل أوان، ولا يقي نقاءه وطهره كنفاء وطهر الأطفال برفقة تراثه الذهني والفكري والحسي في كل وقت، لن يوحى بالثقة إلى من حوله ولن يحوز على التصديق والإقناع قطعاً، مهما توسع في رحاب العلم والأدب والخبرة. وهذا هو السبب في عدم ثقة واطمئنان جموع الناس بنفر من السياسيين وآخرين يسوقون القوة والجبروت أمام المنطق والمحكمة العقلية والقلب، ما عدا الذين يظهرون لهم التصديق خوفاً واستسلاماً.

إن الأرواح الطاهرة والقلوب الصافية قد اتبعت دائماً الفكر النزيه والسلوك السوي النابعين من القلب. نعم، والقلب الطاهر المحافظ على صفاته الفطري قد احتسب - في إشارة قول مبارك - منزلاً للحق تعالى معلوماً بالمكنون والمكنوز. في هذا المنزل يمكن الإحساس والشعور بحقيقة الماوراء بلا كم ولا كيف بدرجة صفاء وسموية أبوابه المنفتحة على الغيوب اللاهائية. وبالطبع إن من قال "رأيت" قصد الرؤية بهذا المعنى... فهذه الأرواح الصافية المطلقة عن الزمان بلغت الفردوس... بلغت وهي لم تنزل في الدنيا بعد، بلغت في نواة "طوبى الجنة" المغروسة في أعماق قلوبها، وشاهدت الكائنات في ذرة، بل وصلت إلى نقطة أبعد من ذلك، إلى أفق "الرؤية".



هذا هو العزم النبوي الذي يرفع الإنسان درجات فوق درجات عند الله، ويكسب القرب من الرب ويوصل إلى المعراج الروحي. وإن الهموم والآلام الصادرة من الشعور بثقل المسؤولية - مع استمرارها ودوامها خاصة - لمي دعاء غير مردود، ومنع وافر مولد لمشاريع بديلة، ونعم له تأثير السحر في القلوب المخلصة التي تمكنت من المحافظة على صفاتها. إن بطل القلب والروح مرشح - بقدر ضخامة همّه - لتجاوز طاقته الذاتية، بل لتجاوز طاقة جماعته التي ينتسب إليها... وقد يتحول إلى مركز محوري لطاقة وقوة الأجيال الماضية والآتية. وأنبه هنا مرة أخرى إلى ضرورة التمييز بين الذين يَحْيُونَ والذين يُحْيُونَ (غيرهم). وقد كررنا مرارًا وتكرارًا أن الذين يقضون أعمارهم في إخلاص ووفاء واهتمام بالآخرين إلى درجة إهمال أنفسهم من أجل إحياء الغير، هم الوراثون الحقيقيون للحقائق التاريخية، وهم الذين نودع أرواحنا وديعة مأمونة عندهم... أولئك الذين لا يطلبون من الجماهير أن تتبعهم، ولكن وجودهم نداء جمهوري وأيّ نداء!.. فأينما كانوا، تهرع الجماهير إلى أولئك الربانيين وكأهم مركز جذب... وقد تستقبل الموت بسعادة وراء ريادةهم.

وسيكون المستقبل بنماذجه المثلثة للمسؤولية وبمجاهد النجاح فيه أئمة رائعا لهؤلاء الربانيين القائمين بهذه المهمة الرسالية. إن وجود وبقاء أمتنا والأمم المتصلة بها، ومجموع ثمار وخيرات حضارة جديدة و متميزة، والحركية الواسعة والباعثة للحياة لثقافة ثرية غنية... ستتنفس بأنفاس أولئك الربانيين، وترتفع كرايات خفاقة في السماء، وتسير نحو المستقبل على أكتافهم القوية... وذلك لأنهم أمناء على الحقائق السامية وورثة ثرائنا التاريخي العريق.

ومعنى وراثته التاريخ هو وراثته كل ركام الماضي المعروف والمجهول والصغير والكبير، وإتناء هذا الركام واستحداث مركبات جديدة منه، ثم نقل ذلك كله إلى الأجيال القادمة، أصحابه الحقيقيين. فإن لم يوف هذا السوارث مهمته التاريخية المتعلقة باليوم والغد حقها من الاهتمام، فسوف يحسب مسؤولاً عن خراب اليوم وضياع الغد. وهي مسؤولية تضعه - إلى حد ما - في موضع خيانة القضية والتاريخ وهدم الجسور بيننا وبين المستقبل إذا ما وقع في غفلة وتعاوس أو توقف للبحث عن يحيل إليه أداء المهمة، بل وحتى إن بمرته محاسن الآخرة الجذابة فذهل رغبا إليها.

فمن الضرورات اللازمة حقًا أن نوقن بأن المستقبل لنا من

حيث وجودنا وبقاؤنا وننظر إليه بهذه العين. فمن المهم لتنشيط حركتنا أن نجعل ذلك في رأس أولويات مشاعرنا وأفكارنا وبرامجنا. وخلاف هذا إهانة وخيانة للأمة. لقد آن الأوان، بل يكاد يفوت، لكي نتحمل مسؤولياتنا إزاء مؤسساتنا في كل مجال مثل الدين والعلم والفن والأخلاق والاقتصاد والأسرة، ونسمو بها إلى مواقعها الحقيقية في مسيرة التاريخ. ونحن - كأمة - ننتظر ونترقب طريق أبطال العزيمة والإرادة والجهد الذين يحملون هذه المسؤولية.

فنحن لسنا بحاجة إلى حسنات ونظم فكرية تستجدي من الخارج أو الداخل، بل حاجتنا الماسة هي إلى أطباء روح وفكر يحفزون في كافة أبناء أمتنا حس المسؤولية وشعور المهم المقدس... أطباء روح وفكر يُمكنون أرواحنا من الانفتاح إلى أعماق الموارء وآفاق الغيوب بدلاً عن وعود السعادة المؤقتة الزائلة، ويرفعوننا بخطوة واحدة إلى مراتب نرى فيها المبدأ والمنتهى معاً وسوية.

نعم، ننتظر أبطالاً يعيشون المسؤولية والقضية إلى درجة يتخلون فيها حتى عن دخول اللجنة إذا لزم الأمر، بل وينقبون عن مخرج إذا ما دخلوها من أجل توفية المسؤولية حقها... أبطالاً يقولون: "والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر ما تركته أو أهلك دونه."^(١)

نعم إنه أفق نبوي... وإن عقلاً مثلنا بأنوار يستمددها من هذا الأفق يقول متى استوجب الأمر خاضعا خاشعا: "ليس في قلبي رَغَبٌ في الجنة ولا رَهَبٌ من جهنم... وإذا رأيتُ إيمان أمي في خير وسلام فإنني أَرْضَى أن أُحرق في هيب جهنم..."^(٢) أو يمد ذراعيه متضرعا مبتهلا: "إلهي، ضحّم بدني حتى تملأ به جهنم، فلا يبقى فيها مكان لغيري.. فتتهتر السموات بأينيه وبكائه.

إن إنساننا يحتاج اليوم أمس الحاجة إلى أبطال العمق اللدنيين الذين يذرفون الدموع على آثام أمتهم، ويقدمون مغفرة البشرية وعفوها على مغفرة أنفسهم، ويفضلون الوقوف والعمل في "الأعراف" سعداء بسعادة سكان الجنة، وحتى إذا دخلوا الجنة لا يجدون وقتا للاستمتاع بملذاتهم الشخصية. ■

(١) الترجمة عن التركية: عوبي عمر لطفى أوغلو.

الهوامش

(١) السيرة النبوية لابن هشام، ٢٨٥/١.

(٢) سيرة ذاتية لبدیع الزمان سعيد النورسي، ص ٤٥٧.



الله

محمد ﷺ

ي

وأظن أننا جميعاً
نعلم أن تقديسنا

لشيء ما إنما يعني تنزيهه

عن السوء وعصمته من الخطأ. فهل

هناك شيء غير الحق أولى منه بالتقديس، أي التنزيه عن السوء
والخطأ؟!!

وهكذا، فإن دعوة بعض الناس إيانا إلى إبعاد سمة التقديس
عن الإسلام ورساله، لاسيما آخرهم الذي أرسل إلى الناس كافة،
ليتيسر لنا -فيما يتصورون- أن نقتحم إلى ذلك كله بالنظر،
وبالبحث والنقد، دعوة متأخرة جداً؛ فقد اقتحمنا إلى ذلك سائر
ألوان البحث والنقد، قبل أن ينهونا إلى ذلك، تماماً كما اقتحم
كل فرد ممن أصبحوا يُسمون أصحاب رسول الله ﷺ سائر سبل
الفحص والنقد والافتراضات المختلفة في تفسير شخصيته ﷺ
قبل إيمانهم به. وما يقيننا اليوم بقدسية هذا الدين ونبيّه إلا القرار
الأخير الذي انتهينا إليه من رحلتنا النقدية هذه.

ودونكم فانظروا إلى ترجمة عمر وخالد وعمرو وعكرمة
ومصعب رضوان الله عليهم أجمعين -وهؤلاء من أبرز أصحاب
رسول الله- تجدون أن إشراقه الإسلام في حياة كل منهم إنما
تفجرت من أحشاء ظلمات تلك المعارضات والانتقادات. غير
أن المعارضة التي كانوا يمارسونها، كانت -على قسوتها وشدتها-
منهجاً نقدياً للوصول إلى معرفة الحق، ثم إلى الانضباط به؛ أي
لم تكن معارضتهم هدماً بحد ذاته، يقعون منه في سجن أبدي

يرى بعض الإخوة
الغريبين أن المسلمين يذهبون
في تقديس قرآنهم ونبيهم مذهباً
يجرمهم من التمتع بحرية الرأي، وربما رأوا أن

الأولى بالمسلمين أن يُنزلوا رسول الله ﷺ عن الرتبة القدسية
التي يتبوؤوها في أفئدتهم إلى حيث لا يبدو في أنظارهم أكثر من
زعيم في قومه ولت زعامته مع ذهاب عصره. فما الذي ينبغي
أن نقوله لهؤلاء الإخوة؟

منهجنا في البحث والنقد

نقول لهم: إن تقديسنا للإسلام ومصدره ونبيّه خاتم المرسلين، إنما تم في
نهاية رحلة طويلة من البحث والنقد، وبعد افتراض كل الاحتمالات
الممكنة في تفسير الإسلام والقرآن وظاهرة الوحي وتحليل شخصية
محمد ﷺ، والاعتماد على منهج الاستقراء التام لها.

فلما وصلنا من هذه الرحلة إلى النهاية ذاتها التي وصل إليها
الرعيّل الأول من قبل، وثبت لدينا بالحجة العلمية أن الإسلام
ليس إلا شرعة رب العالمين، شرف بها عباده في الأرض، وأن
محمدًا ﷺ لم يكن إلا الأمين على نقل هذه الشرعة إلينا، وأن
القرآن ليس إلا وحي الله المنزل عليه لفظاً ومعنى؛ كان لا بد
لنا عندئذ من اليقين بأن الإسلام حق لا يأتيه الباطل من بين يديه
ولا من خلفه قد تنزل من عند الله على عباده.

وهل رأيتم عاقلاً لا يحمل عقله على تقديس الحق؟! وهل
التأبي على تقديس الحق إلا تعبير غير مباشر عن تقديس الباطل؟!!

تقديس الحق أمر طبيعي

إننا اليوم نسلك المنهج ذاته الذي سلكه أسلافنا من قبل؛ مررنا مثلهم بمرحلة البحث والنقد ووضع الافتراضات الممكنة، ثم انتهى بنا هذا المنهج إلى معرفة الحق والتبصر به. وإنه لشيء منطقي وطبيعي أن تتوجه إلى هذا الحق الذي عرفناه فنقدّسه ونوليّه ثقتنا ثم ولاءنا المطلق.

وإن من حق الغربيين الذين لم يسلكوا إلى معرفة الحق الذي عرفناه هذا المنهج المنطقي الذي سلكناه أن لا يشعروا بأي قدسية للإسلام الذي لم يتبين لهم جوهره بعد، ولا لنبية محمد ﷺ الذي لم يقفوا على هويته الحقيقية بعد، ولا للقرآن الذي لم يتوفروا على دراسته بعد.

ولكن ليس من حقهم أن يجعلوا من جهالتهم هذه قرار اتهام وتجريح لمعتقداتنا ومقدساتنا التي لم ننته إلى قرار اعتناقها وتقديسها إلا بعد منهج طويل من البحث والنقد والنظر.

وصفوة القول أننا نحن المسلمين لا نتعامل مع تلك القداسة الغامضة التي يتحدث عنها الآخرون، والتي لا يملكون من ألفاظ التعبير عنها والتعريف بما إلا أنها الرهبة والتعظيم للمجهول، بل إننا لا نفقه شيئاً من هذه المصطلحات، ولم يعوّدنا إسلامنا على النظر إلى المجهول بأي إجلال أو إكبار؛ وإنما نتعامل مع منهج المعرفة الذي يوصلنا إلى معرفة كل من الحق والباطل.. وعندئذ لا بدّ أن نقدر الحق لأنه حق، وأن نتجاوز الباطل لأنه باطل. ومن لم يقدر الحق بعد معرفته له، كانت معرفته له عبثاً، بل الشأن فيه أن تكون نظرتك إلى كل من الحق والباطل واحدة، وأن يكون تعامله معهما واحداً دون تفریق.

نرى أي قيمة تبقى لحياة تضمحلّ فيها الفوارق بين الحق والباطل؟ وأي فائدة تبقى لعلم لا يملك أن يصنفهما ويضع كلاً منهما في المكان اللائق به؟! بل أي مزية تبقى للعلم على الجهل إذا لم يملك أن يحجز الحق عن الباطل، وإذا لم يتأت له أن يحمي الحق في حصن من القداسة والتنزيه؟!!

وكلمتي الأخيرة هي أن الإنسان معذور إن هو جهل الحق فلم يقدره ولم يتعامل معه، ولكنه ليس معذوراً إن هو أصّر على أن يجعل من جهالته لسان سخرية واستهزاء من المقدّس. ■

لا محيص لهم عنه، دون أي نظر إلى الحق ومساره، كما يحبه لنا أولئك الذين دأبهم التنكّر لقداسة الحق بحذ ذاته مهما ثبت أنه الحق، والانطواء في سجن معارضته ومقاومته، مهما ظهر لهم أن عملهم هذا باطل من الفعل والقول.

منهج الصحابة في البحث عن الحق

انظروا إلى عمل عدي بن حاتم رضي الله عنه وقد كان واحداً من أبرز رجال المعارضة وأكثرهم كراهية لرسول الله ﷺ أيام كانت الحقيقة غائبة عن بصيرته، وكان قد ترك المدينة والحق بنصاري الشام. قال يتحدث عن نفسه: "كرهت مقامي في الشام أشدّ من كراهتي لرسول الله ﷺ، فقلت في نفسي: لو أتيت، فإن كان ملكاً أو كاذباً لم يخف عليّ، وإن كان صادقاً أتبعته."

تأملوا في هذه الكلمة، بل في هذه المحاكمة النفسية، تلك هي المعارضة السامية التي تعبّر عن حرية البحث، واتخاذ كل من النقد والنظر منهجاً لاكتشاف الحقيقة والتخلّص من غاشية الوهم.

ثم يتابع عدي رضي الله عنه حديثه فيقول: ثم قدمت المدينة، فدخلت عليه (أي على رسول الله ﷺ) في مسجده، فسلمت عليه، فقال: "من الرجل؟" فقلت: عدي بن حاتم، فقام فانطلق بي إلى بيته، فوالله إنه لعامد بي إليه، إذ لقيته امرأة ضعيفة كبيرة، فاستوقفتني، فوقف لها طويلاً، تكلّمه في حاجتها، فقلت في نفسي: والله ما هذا بملك! ثم مضى بي حتى أدخلني بيته، فتناول وسادة من جلد، محشوة ليفاً، فدفها إليّ، فقال: "اجلس على هذه"، قلت: بل أنت فاجلس عليها، قال: "بل أنت". فجلست عليها. وجلس هو على الأرض. فقلت في نفسي: والله ما هذا بأمر ملك. ثم قال: "إيه يا عدي، لعلك إنما يمنعك من دخول في هذا الدين ما ترى من حاجة أهله. فوالله ليوشكن المال أن يفيض فيهم حتى لا يوجد من يأخذه؛ ولعلك إنما يمنعك من دخول فيه ما ترى من كثرة عدوهم وقلة عددهم، فوالله ليوشكن أن تسمع بالمرأة تخرج من القادسية على بعيرها حتى تزور هذا البيت، لا تخاف؛ ولعلك إنما يمنعك من دخول فيه أنك ترى الملك والسلطان في غيرهم، وأيم الله ليوشكن أن تسمع بالقصور البيض من أرض بابل قد فُتحت عليهم". قال: فأسلمت.

فهذا لون من ألوان النقد والمعارضة يحدّثكم عن خبره معها واحد من أبطالها. غير أنها كانت كما ترون، مطيّة بحث ومنهج دراية ابتغاء الوصول إلى الحقيقة. فلما أوصلته المطية إليها كان لا بدّ أن يقدرها ويلقي بعضى التسيار عندها.

(٤) كلية الشريعة، جامعة دمشق / سوريا.



إن رسالته ﷺ عالمية، وكل إنسان ينهل منها حسب سعة قلبه وشمولية قابليته. وذلك بسبب فطرية رسالته، وكون الأحكام التشريعية فيها موافقة للسنن الكونية وملائمة لطائف الإنسان القلبية والروحية والعقلية.

الأمر الشريف - ١٨٩٥ / من ألومك السلطان عبد الحميد الثاني

أصالة التجربة التربوية في التراث الإسلامي

أ. د. بركات محمد مراد*

الفكر التربوي الإسلامي يستمد أصوله النظرية والتطبيقية من منهجية تكوينية قيمة استلهمها من ينابيع القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة اللذين يهديان النفس البشرية والمجتمع الإنساني إلى أقوم السبل وأفضلها؛ وقد نجحوا في واقع الحياة على رقعة واسعة من الأرض والمعمورة، وما تزال ينابيعهما ثرة خيرة يمكنها أن تجد التجربة الناجحة وتروي ظمأ الإنسانية وتحل مشاكلها في كل زمان ومكان.

النبي ﷺ.. المربي الأعظم ولقد زحرت حياة الرسول الكريم ﷺ بالمثل القرآنية الحية التي تجسدت في حياته الشريفة وفي توجيهاته التربوية المتعددة الألوان والمعالم. ولا يغيب عن ذهن المثقف حثه ﷺ على العلم ووصاياه القولية وسننه العملية في فداء أسرى بدر بتعليم الأسير عشرة من أبناء الصحابة القراءة والكتابة، وأمره زيد بن ثابت تعلم السريانية وغيرها، وإيفاده البعثات التعليمية والوفود التربوية مثل

قيس بن عاصم، والزبرقان بن بدر، وابن نويرة، وسعيد بن العاص، ومعاذ بن جبل... إلخ.

ولقد تنوعت وسائل النبوة في مخاطبة الناس على قدر عقولهم، وأخذهم باللين والتدرج، وعدم الغضب إلا في موضعه المناسب، وصبره على إيذاء الآخرين بالقول والعمل، وإقناع الآخرين بالمنطق والواقع، واهتمامه الخاص بالصبية والفتيان والشباب، والإفادة من المناسبات والوقائع والحوادث، وسبقه إلى العمل وحماسه له، وتمييز شخصيته عن الآخرين بالفضائل الإنسانية والخبرات الشخصية... الأمر الذي شد المسلمين إليه وحببهم بأحواله، وصنع منهم خير أمة أخرجت للناس.

طلب العلم.. أولى خطوات التربية

ويمكن تلخيص الطابع العام للتربية الإسلامية بأن عنايتها تجلّت في نزعتها المثالية في تقديم العلم والحث على طلبه، وفي الاهتمام بالفضائل الخلقية، ثم في مرونتها في طرق التحصيل، واصطبأها بروح الديمقراطية التي قضت على الفروق بين الشعوب والأجناس والطبقات في مجال التعليم والدين، وإعطاء الأفراد فرصاً متساوية في التحصيل لم تكتمل في كثير من الأمم الحديثة اليوم.

وإن الطابع العام للتربية عند المسلمين لم يكن دينياً محضاً ولم يكن دنيوياً محضاً، وإنما كان يلائم بين الدين والدنيا، فكانت التربية تهدف إلى إعداد النشء للحياة وللآخرة معاً في إطار الآية الكريمة ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾ (القصص: ٧٧)، والحديث الشريف: "ليس خيركم من ترك الدنيا للآخرة، ولا الآخرة للدنيا، ولكن خيركم من أخذ من هذه وهذه".

ولقد وهب كثير من العلماء حياتهم للعلم تحصيلاً وتدويناً لا لشيء سوى الإيمان بتحصيل العلم واستشعار اللذة في تدوينه، كما عبر عن ذلك الإمام الغزالي في الإحياء: "إذا نظرت إلى العلم رأيته لذياً في نفسه فيكون مطلوباً لذاته، ووجدته وسيلة إلى الدار الآخرة وسعادتها، وذريعة إلى القرب من الله تعالى، ولا يتوصل إليه إلا به. وأعظم الأشياء رتبة في حق آدمي السعادة الأبدية، وأفضل الأشياء ما هو وسيلة إليها، ولن يتوصل إليها إلا بالعلم والعمل. فأصل السعادة في الدنيا والآخرة هو العلم، فهو إذن أفضل الأعمال".

قضايا التربية.. صلب الفكر الإسلامي

من المؤكد أنه على المدى الطويل الذي امتد حوالي عشرة قرون أي ما بين (١٠٠ - ١٠٠٠هـ)، وعلى اتساع رقعة العالم الإسلامي، برزت شخصيات تربوية عظيمة، نجح بعضهم أسلوباً تربوياً في تأليفه كالإمام الشافعي في "الرسالة"؛ وبعضهم تعمق في بحوثه النفسية والإرادية كالغزالي والمحاسبي وكثير من الصوفية؛ وبعضهم حلل المدركات البشرية وماهية العقل والنفس كالكندي الفيلسوف في المشرق، وابن طفيل وابن باجة في المغرب (خاصة في قصتيهما "حي بن يقظان" و"تدبير المتوحد"). حتى إن المدرسة العقلية في تفسير القرآن عنيت بالجانب الإدراكي لدى الإنسان عناية خاصة، وفي طليعة أعلامه الفخر الرازي والنسفي والبيضاوي. وهؤلاء الذين أدركوا أغوار النفس وأبعاد الذات، كانت لهم تأملات تربوية، وأهداف تعليمية، وقواعد بنائية في النفس والإرادة أغنت نظراتهم الشمولية في الكون والنفس والحياة.

لقد أظهر أئمة التربية المسلمون فهماً كبيراً للأسس السيكولوجية للتربية الخلقية، وكان لهم في ذلك طريقان: أولهما الاهتمام بالوسائل الدافعة المتمثلة في القدوة الحسنة، والبيئة الصالحة والتشجيع والترغيب والملائمة؛ والأمر الثاني هو الاهتمام بالوسائل المانعة كالاتعاظ بالغير، والعقاب عند الضرورة.

إن كثيراً من دوافع السلوك لدى الطفل - كما تقرر التربية الحديثة - يتكون عن طريق الخبرة والتفاعل مع البيئة. ونحن إذا ما هيأنا للطفل المجال الصالح، فنحن بذلك نزوده بعدد كبير من الدوافع التي تتطلب منه الرغبة في التفكير والعمل. وواجب المدرس أن يبذل اهتماماته لتنمية دوافع الطفل ليستطيع بذلك أن يحقق الأهداف التي يتبناها من التربية.

المدرّس.. الركن الأساس في عملية التربية

ولكن استغلال الدوافع عند الأطفال ليس أمراً يسيراً، فإنه يقتضي توفر قدرة وموهبة خاصة في المدرس. وقد رأينا العناية البالغة التي دعت إليها التربية الإسلامية في اختيار المدرس، والإفاضة في رسم ملامح شخصيته بدقة، والتشدد الذي يفرض أحياناً إلى المبالغة لاستخراج مثالية معينة في المدرس لكي يستطيع أن ينهض بواجبه كاملاً، وبمسؤولياته الجسيمة في تنشئة التلاميذ وتهذيبهم. وإن دعوة المدرسين إلى ملاحظة الفروق الفردية بين التلاميذ، ومراعاة



يستطيع أن يخرج بتربيته أخلاق السوء من نفس تلميذه، ويجعل مكانها خلقا حسنا. ومعنى التربية يشبه فعل الفلاح الذي يقلع الشوك ويخرج النباتات الأجنبية من بين الزرع ليحسن نباته ويكمل ريعه. ثم يتحدث عن تأثير القدوة وأنه ليس كل مرب صالحا للتأثير في تلاميذه، فإن المربي الفاضل هو من يستطيع أن يجعل من خلقه وسلوكه نموذجا للاهتداء به، لأنه كما يقول الغزالي: "من اشتغل بالتعليم فقد تقلد أمرا عظيما وخطرا جسيما، فينبغي أن يأخذ نفسه بالشفقة على المتعلمين، وأن يجربهم مجرى بنيه، وأن لا يدع من نصح المتعلم شيئا، وكذلك أن لا يفتح في نفسه العلوم التي لا يقوم بتدريسها، وأن يكون المعلم عاملا بعلمه فلا يكذب قوله فعليه، لأن العمل إذا خالف العلم منع الرشد. ومثل المعلم المرشد من المسترشدين مثل الظل من العود، ومتى استوى الظل والعود أعوج؟!".

المستويات العقلية وزمن الدرس
وفي مراعاة المستويات العقلية للطلاب يقول النووي: "وينبغي أن يكون باذلاً وسعه في تفهيمهم، وتقريب الفائدة إلى أذهانهم، حريصا على هدايتهم، ويفهم كل

واحد بحسب فهمه وحفظه؛ فلا يعطيه ما لا يحتمله، ولا يقتصر به عما يحتمله بلا مشقة، ويحاطب كل واحد على قدر درجته، وبحسب فهمه وهمنته. فيكتفي بالإشارة لمن يفهمها فهما محققا، ويوضح العبارة لغيره، ويكررها لمن لا يحفظها إلا بتكرار. ويذكر الأحكام موضحة بالأمثلة من غير دليل لمن لا يتحفظ له الدليل، فإن جهل دليل بعضها ذكره له ويذكر الدلائل لمحتملها".

وفي زمن الدرس المتوسط والمناسب للمادة العلمية يقول السمعاني: وينبغي للملمي ألا يطيل المجلس الذي يرويه، بل يجعله متوسطا، حذرا من سامة السامع ومالله، وأن يؤدي ذلك إلى فتوره عن الطلب وكسله، فقال أبو العباس محمد بن يزيد الميرد فيما بلغني "من أطال الحديث وأكثر القول فقد عرّض أصحابه للملال وسوء الاستماع، ولأن يدع من حديثه فضلا يعاد إليها،

الاستعدادات المختلفة عندهم، تشكّل دعوة هامة وضرورية في هذا المجال. فإن المعلم إذا لم يكن مزوّدا بقدرات ومواهب معينة لا يمكن أن يكون له التأثير النافع في تحقيق الغايات التربوية. ذلك لأن كثيرا من الصعوبات التي تواجهه نتيجة للتباين والاختلاف في خبرات التلاميذ السابقة، وتداخل العوامل النفسية وتعقدها. كل ذلك يتطلب منه قدرا كبيرا من الذكاء وحسن التصرف.

إن الإفراط في الثناء أو المدح قد يفضي بالطفل إلى حالة من الثقة تؤدي به إلى الاكتفاء بما عنده، وعدم الرغبة في بذل أي مجهود مما تكون نتيجته بالنسبة للطفل انحطاط مستوى التحصيل لديه. ومثل ذلك يكون في الإفراط

في العقاب أو اللوم الذي قد يفضي بالطفل إلى حالة من اليأس أو عدم الاكتراث، وبذلك تصبح البواعث لدى كل منهما معطلة، وليس لها أية قوة دافعة. كما أن للمدرس شأنًا كبيرا في إثارة دوافع التلاميذ، ويكون ذلك عن طريق تأسيس روح الوثام والحب بينهم، والاجتماع لتبادل الرأي فيما يعرض لهم من مشكلات. وفي الواقع إن حب التلميذ لمعلمه يدفعه إلى الجهد في مادته لكي يفوز برضاه، وهذا ما تقرره التربية الحديثة.

**إذا نظرت إلى العلم رأيتك لذيتك في نفسه
فيكون مطلوباً لذاته، ووجدته وسيلة
إلى الدار الآخرة وسعادتها، وذريعة إلى
القرب من الله تعالى، ولا يتوصل إليه إلا
به. وأعظم الأشياء رتبة في حق الأدمي
السعادة الأبدية، وأفضل الأشياء ما هو
وسيلة إليها، ولن يتوصل إليها إلا بالعلم
والعمل. فأصل السعادة في الدنيا والآخرة
هو العلم، فهو إذن أفضل الأعمال.
الإمام الغزالي**

يقول الرشيد لمؤدب ولده الأمين: "لا تمرّن بك ساعة إلا وأنت مغتم فائدة تفيده إياها من غير أن تحزنه فتميت ذهنه، ولا تمنع في مسامحته فيستحلي الفراغ ويألفه، وقومه ما استطعت بالقرب والملاينة، فإن أباهما، فعليك بالشدة والغلظة". ويتحدث "إخوان الصفا" عن تأثير القدوة في التربية وفي تكوين العادات الطيبة حين يقولون: "واعلم أن العادات الجارية بالمداومة عليها تقوّي الأخلاق المشكّلة لها، كما أن النظر في العلوم والمداومة على البحث عنها، والدرس لها، والمذاكرة فيها، يقوي الحدق بها والرسوخ فيها، وهكذا حكم الأخلاق والسجايا".

كما نجد الإمام الغزالي قد دعا إلى تعديل العادات الضارة، واقتلاع جذورها من النفس، مسaire منه لفلسفته في مجاهدة النفس، فيذكر في رسالته "أيها الولد" الحاجة إلى المربي الذي



أصلح من أن يفضل عنه ما يلزم الطالب استماعه من غير رغبة فيه ولا نشاط له".

العقوبة.. حدودها وضوابطها

أما العقاب وأضراره، فقد شغل حيزًا كبيرًا من اهتمام التربويين المسلمين؛ فلم يسمحوا به إلا عند الضرورة، لأهم رأوا في الضرب المبالغ فيه نوعًا من الانتقام والتشفي، وقد نهي الفقهاء عن الضرب والتشفي. وقد عقد ابن خلدون في مقدمته فصلاً عن أضرار الشدة على المتعلمين، لأنه رأى أن "إرهاق الحدّ بالتعليم مضرّ بالمتعلم سيّما في أصغر الولد، لأنه من سوء الملكة. ومن كان مرباه بالعسف والقهر من المتعلمين أو المماليك أو الخدم سطا به القهر، وضيق عن النفس في انبساطها وذهب بنشاطها، ودعاه إلى الكسل، وعمل على الكذب والخبث، وهو التظاهر بغير ما في ضميره خوفاً من انبساط الأيدي بالقهر عليه، وعلمه المكر والخديعة لذلك، وصارت له هذه عادة وحلقاً".

وبعد أن يجلل ابن خلدون هذه المضار التي تنشأ عن الشدة في تكوين الصبي واكتسابه للعادات الضارة، يتقصّى الأضرار الاجتماعية التي تتأثر بإيجاد هذا السلوك عند الطفل كنتيجة للعقوبة والشدة؛ فيرى أن نتائج هذه التربية النامية في مجالات القوة تؤدي بدورها إلى إفساد المعاني الإنسانية للصبي "من حيث الاجتماع والتمرّن، وهي الحماية والمدافعة عن نفسه ومنزله"، فيصبح بذلك على حد تعبير ابن خلدون "عيباً على غيره في ذلك"، لأن الغرض الذي ينبغي أن تهتم به التربية من توجيه سلوك الفرد لمواجهة الحياة يخبو بتأثير هذه الشدة، وينحرف عن مجاله السديد. ثم يمضي في تبيان الأضرار التي تصيب نفس الصبي، فتشلّها عن اكتساب الفضائل والأخلاق الطيبة، وبذلك تنقبض عن غايتها ومدى إنسانيتها ويصيبها الارتكاس.

المربي المسلم... قمة في صناعة التربية

لقد أفاض هؤلاء المربون في شرح طرق معاملة الصبيان وتأديبهم، واهتموا اهتماماً بالغاً بالتنوع في طرق التهذيب ومقتضياتها. فقد دعا الغزالي إلى تكريم أخلاق الصبيان الحميدة ومدحها، كما دعا إلى التغافل عن أخطائهم، فإذا ما تكررت عوتب الطفل عتاباً رقيقاً، وعُدّ ذلك من دقائق صناعة التعليم، "فإنّ التصريح يهتك حجاب الهيبة، ويورث الجرأة على المهجوم، ويهيّج الحرص على الإصرار". إن هذه الألوان المنوعة التي دعوا إليها في معاملة الصبيان

لا تحتاج إلى بيان أهميتها في تربية شخصياتهم، وتنمية النوازع الطيبة في نفوسهم. وهذه الدعوات المستفيضة في رعاية الصبيان وبثّ الخير في نفوسهم، إنما تنبثق من فهمهم الناضج لطبيعة الأطفال، وكذلك رغبتهم المخلصة إلى أبعد الحدود في نشر العلم والترغيب فيه، واحتمال الجهد في سبيل تقريه من النفوس، وإذاعته بين الناس، وأخيراً شدة استمسакهم بالأخلاق القويمة التي طبعت سلوك هؤلاء العلماء والمريّين، وضرهم الأمثلة الرائعة في التضحية بملذات الحياة، والاعتزاز بكرامة العلم إيثارة للحياة البسيطة على ابتذال ثقافتهم ومثلهم وأخلاقهم التي كانت أعظم ما يتحلّون به.

وكان من أبرز هذه الصفات التي اتصف بها أولئك المربون التواضع، الذي كان من أبرز دلالاته أنّ وجهوا المعلم إلى أنه إذا غاب بعض الطلبة غياباً زائداً عن العادة، فإنه يجب عليه أن يسأل عنه، وعن أحواله وعمن يتعلق به، فإن لم يُخبره عنه أحد أرسل إليه، أو قصد منزله بنفسه وهو أفضل؛ "فإذا كان مريضاً عادته، وإن كان في غم خفض عليه، وإن كان مسافراً تفقد أهله ومن يتعلق به، وسأل عنهم، وتعرض لحوائجهم ووصلهم بما أمكن، وإن كان فيما يحتاج إليه فيه أعانته، وإن لم يكن شيء من ذلك تودد إليه ودعا له".

ولعل في دراسة تراثنا التربوي باتجاهاته التربوية المختلفة ما يكشف لنا عن الثابت والمتغير في هذا التراث، وما يكسب الباحثين القدرة على محاكمة هذا التراث والاستفادة من هذا التعدد وهذا التنوع في معالجة قضايا التربية. وإن دراستنا لتلك الاتجاهات سوف تكسبنا الإدراك أنّها جميعاً اجتهادات في إطار الإسلام، وأنّها جميعاً اتفقت على الجذع المشترك الواحد لتربية الإنسان المسلم في مرحلته التعليمية الأولى، بعد ذلك تأتي مرحلة التخصص، وهنا تظهر تلك الاتجاهات التربوية المختلفة في التربية الإسلامية، كما تعكسها كتب التراث التربوي المعروفة لنا حتى

الآن. ■

(٤) أستاذ الفلسفة الإسلامية، كلية التربية، جامعة عين شمس / مصر.

المصادر

- (١) إحياء علوم الدين للإمام الغزالي.
- (٢) المقدمة لابن خلدون، طبعة البيان.
- (٣) منهج القرآن في التربية لمحمد شديد، بيروت ١٩٨١.
- (٤) التربية عند العرب لمحمد فوزي العنتيل.
- (٥) في التراث العربي التربوي لنذير حمدان.



لقد احتضن النبي ﷺ برسائله الإنسانية، بل الوجود كله بالحب،
وإن حبه الواسع وشفقته الشاملة لم تبق في إطار الكلام أو بطون
الكتب، بل سرعان ما انعكست في الحياة بكل معانيها وأبعادها.

سناجاة أم

أمين مانيسالي *

منتصف الليل. قررت أن أسمع كلام
الدكتور وأذهب إلى البيت لأستريح قليلا. كان
الوقوف على رجليّ منذ الساعة الخامسة فجرا قد أرهقني
كثيرا. كنت قد أمضيت طيلة يومي في المستشفى. أعرف
أنه ليس بوسعي سوى الصبر والانتظار. نظرت بحنان إلى وجه
ولدي. أردت أن أضمه إلى صدري وأقبله، ولكن حالته ما
سمحت لي بذلك. فخرجت من الغرفة مسرعة.

شعرت بوحدة قاسية عندما فتحت الباب ودلفت إلى البيت.
كان الحزن والصمت يخيمان على كل أطراف الغرف. لم أشأ
أن أخبر زوجي بمرض ولدنا لكي لا أقلقه فيضطر إلى ترك عمله
والمكوث إلى جانبنا. وكيف أخبره ولم تتأكد النتيجة بعد. لم
أفقد الأمل أبدا. أعرف أنه سيشفى.. نعم، أرجو أن يُشفى. غدا
يتضح كل شيء، وليس لدي سوى الاعتصام بالصبر.

تناولت دواء منوّما ونمت. وبعد أن أمضيت بضع ساعات
أثقلب في الفراش مراوحة بين النوم واليقظة انتفضت على رنين

سمحوا لي بالبقاء إلى جانب ولدي لكوني
طبيبة لا لكوني أمّا. كان الأطفال وبينهم
ولدي تحت العناية الخاصة في جناح مخصص
لهم. كنت أسمع بكاءهم وأنيهم من المكان الذي أقف فيه. أذكر
أن ولدي استغرق في النوم عندما كان الطبيب يفحصه بعد أن
نظر إليّ نظرة المستغيث ناطقا عبارة "أماه" بصوت يشبه الأنين.
قال الطبيب متأسفا "إنه الشلل، لكنه لم ينتشر في كل
الجسم بعد". انعدت لساني وعجزت عن الكلام. لا أكاد أصدق،
مصاب بالشلل... لا، هذا مستحيل. تجمدت جميع خلايا بدني
وما عدت أستطيع التفكير. نسيت أنني طبيبة، انقبض صدري
وأظلمت الدنيا في عيني، قلت وقد ألمّ بي الخوف والقلق "أنت
متأكد؟ لم ينتشر بعد، أليس كذلك؟" "ليس بعد، وأرجو ألا
ينتشر".

نظر إليّ بإشفاق "أقترح عليك أن تذهبي إلى البيت لتأخذي
قسطا من الراحة يا دكتورة". كانت الساعة تشير إلى ما بعد



الهاتف. "هل حدث شيء لولدي يا ترى!؟". كانت الساعة تشير إلى الرابعة فجرا. رفعت السماعة بسرعة، وإذا بصوت امرأة مرتبكة وقد تعثرت الكلمات في فمها "دكتور! أريد الدكتور، أرجوكم ساعدوني!"

تنفست الصعداء.. ولدي بخير إذن. عندما فهمت المرأة أنني الطيبة سكنت، وبدأت تشرح لي حالة طفلها، فأدركت للتو أنه شبخ الشلل. سجلت عنواها وطمأنتها بقدمي حالا. وقبل الخروج من البيت اتصلت بالمستشفى لأطمئن على ولدي. فقيل لي إنه لم يتغير فيه شيء.

كانت الأزقة خالية من البشر، والهدوء قد ضرب أطنايه في كل مكان. وصلت إلى ضواحي المدينة حيث المنازل البسيطة المتناثرة دون انتظام. وبعد قليل أوقفت سيارتي، فإذا بامرأة تحمل في يدها مصباحا تهرول نحو السيارة. استغاثت من أعماق قلبها بصوت ملؤه الحزن والأسى "أسرعي يا دكتور، أرجوكم أسرعي!".

نظرت إلى وجهها المبلبل بالدموع. فلم أستطع التمييز بين ما إذا كانت شابة أم مسنة. صُدمتُ عندما دخلت بيتها المؤلف من غرفة واحدة فقط. يا إلهي، ما رأيت بيتا بئيسا مثل هذا البيت. لا أكاد أصدق ما رأيته، ثلاثة أطفال يشبهون الهياكل العظمية من شدة الهزال وقد التفوا حول طاولة خالية. كانت الغرفة مظلمة عدا جزء يسير قرب المصباح. وبينما كنت أنظر إلى الأطفال بإشفاق، طرق سمعي أنين عميق من إحدى زوايا الغرفة المظلمة. وما أن أمعنت النظر في تلك الناحية حتى رأيت طفلا قد قارب الخامسة من العمر يتألم ويئن تحت لحاف رث قديم.

وعندما قمت بفحصه أدركت أنه واقع في شرك شلل الأطفال. طلبت من الأم أن تنتظري لحظات، وخرجت من البيت مسرعة أبحث عن مكان أجري منه اتصالا هاتفيا. اتصلت بالمستشفى وطلبت سيارة إسعاف على الفور.

بعد ربيع ساعة عدت إلى الأطفال مرة أخرى وفحصتهم واحدا تلو الآخر. فانبسطت أسارييري وكدت أطيّر من الفرح عندما وجدتهم غير مصابين بعد. وفجأة راح الطفل المريض يبكي وسط آلام وأنين يمزق القلب. أمسكت الأم بيدي متسائلة، فما استطعت إخفاء الحقيقة عنها، "طفلك مريض جدا، ولكن سنبدل كل ما في وسعنا حتى يشفى، لا تقلقي".

اندهشتُ حينما رأيتهما يتبسم بوقار وتلاطف شعر طفلها المسكين بحنان وتلفتت إليّ قائلة "فلنتضرع إلى الله إذن، هل تتضرعين معنا يا دكتورة". لم يحدث أن طرح عليّ أحد من زبائني مثل هذا الاقتراح. شعرت أن هذه السيدة تعرف ما لا أعرفه. فاستجبت لطلبها فوراً... الأطفال والأم وأنا... جثونا جميعا على الأرض وشرعنا نبتهل إلى الرحمة اللانهائية. كانت الأم تدعو بصوت ملؤه الاستسلام والعبودية الكاملة. أحسست بمشاعر سامية تملأ قلبي وهز وجداني، شعرت بأن الكون كله يشاركنا في دعائنا.

لاحت في ذهني بغثة ممرات المستشفى الباردة وصورة ولدي الحبيب. أحسست كأنني تجاوزت الزمان والمسافات، وشعرت أنني إلى جانب ولدي المسكين حقا. كان ولدي يتبسم إليّ في ذلك العالم العجيب الذي دخلت فيه.

صحوت من تأملاتي على صوت الأم المستسلمة للشافي المتعالي... يا إلهي، ما هذا الخشوع... ما هذا الطهر والنقاء... ما هذا السمو الأبدي... فقلت لحظتها من كل قلبي "استجب دعاءنا يا رب".

عندما أهدت الأم دعائها كان طفلها المريض قد استغرق في نوم عميق وغشيته سكينه عجيبة. قالت وقد تألأت عينها بالأمل والإيمان "أرأيت يا دكتورة، لقد استجاب الله دعاءنا". لم أجد كلمة أقولها. ظل الطفل نائما أثناء نقله إلى سيارة الإسعاف. ولما خرجتُ من ذلك المنزل المتواضع تركتُ حقيبة نقودي كلها لتلك الأم العابدة التي منحني ثروة لا تقدر بثمن، وقلت لها "سوف أعود ليلة الغد مرة ثانية".

اتجهتُ نحو السيارة وقد لفتني سكينه إلهية... رفعتُ بصري إلى السماء وقد فاض قلبي حمدا لله... وبعد قليل بدت في الأفق الشرقي طلائع اليوم الجديد، فاتجهت صوب المستشفى. فما عدت أشعر بأي قلق أو خوف تجاه ولدي، إذ كأن عبئا ثقيلًا قد زال عن قلبي الليلة، وكان صوتا لَدُنِّيَا يهمس في أذني بأن ولدي سيبتسم إليّ من جديد. ■

(٤) كاتب تركي. الترجمة عن التركية: نور الدين صولاش.





المسجد النبوي - ١٨٨٠ / من ألبومات السلطان عبد الحميد الثاني

عمق الأواصر بين الرحلة والدين في الثقافة الإسلامية

المباشرة والتلقين، أشد استحكاما وأقوى رسوخا. فعلى قدر كثرة الشيوخ يكون حصول الملكات ورسوخها".

لهذا فإن طالب العلم يجني من رحلته فائدة عظيمة، "فلقاء أهل العلوم وتعدد المشايخ يفيد في تمييز الاصطلاحات بما يراه من اختلاف طرقهم فيها، فيجرد العلم عنها، ويعلم أنها أنحاء تُعلم، وطرق تُوصل، وتنهض قواه إلى الرسوخ والاستحكام في المكان، وتصحح معارفه وتميزها عن سواها، مع تقوية ملكته بالمباشرة وكثرتها من المشيخة عند تعددهم وتنوعهم".

إن الرحلة فرصة تتاح للرحالة لكي يتفاعل تفاعلا مشرعا مع العلماء والطلبة الموجودين في البلد الذي يزوره؛ حيث تتكون المجالس العلمية، وينظر في مواضيع متنوعة، تتوحد فيها أو تتشعب

ما من شك في أن للرحلة

في الثقافة الإسلامية مفهوما

خاصا ومتميزا، فلا يستطيع الباحث

أن يستجلي سرّها إلا إذا استحضر الأواصر القوية التي تشدها إلى الدين القويم. ويكفي أن نشير هنا إلى أنها اقترنت بعوامل التحفيز المؤدية إلى التفقه والتبحر في العلوم. ومن ثم كان "من بين أهداف الرحلة الأساسية عند ازدهارها - خصوصا الرحلة الحجازية- التحصيل والاتصال المباشر بالشيوخ المشاهير، وربط السند بعلومهم وكتبهم بواسطة رواياتهم ومحفوظاتهم".

عظمة المنطلق والهدف

فالرحلة "لا بد منها في طلب العلم، لاكتساب الفوائد والملكات، بلقاء المشايخ ومباشرة الرجال"، علما بأن "حصول الملكات عن

حولها وجهات النظر. وعلى هذا النحو، نرى أن القرآن الكريم يُستأثر باهتمام خاص في الرحلة الحجازية مثلا؛ فقد ترد الآيات القرآنية الكريمة على سبيل الاستشهاد أو التلليل والاحتجاج والاستنباط، وتثار أسئلة من أجل التفقه والمدارسة والتدوق، فضلا عن أن الرحلة يتجاوب تجاوبا روحيا وفكريا مع فقهاء الركب وعلماء الزوايا والمساجد أثناء الطريق في رحلته، وكذلك عند توقف ركبه في مصر والحرمين.

ومما يقوّي الاعتقاد بأن الرحلة عند المسلمين تتخذ طابعا روحيا ودينيا، هو حرص الرحالة المسلم على أن يكون قصده من رحلته وجه الله حتى لا يكون حظه من السفر هو النصب. ومن الأمارات الدالة على عمق الأواصر بين الرحلة والدين في الثقافة الإسلامية، انكباب كثير من الأئمة والعلماء المسلمين على السفر وانشغالهم بتنفيذ رحلتهم. وجدير بنا في هذا السياق، أن نشير إلى أن أهل المغرب الأقصى كانوا أكثر الناس رحلة وتقييدا لها، وفي مقدمتهم ثلّة من الأئمة المفسرين والحفاظ المحدثين والفقهاء.

ولا عجب في أن يستعمل الرحالة المغربي الرحلة إلى بيت الله الحرام دون أن يكثرث بما يلاقه من المشاق، طالما أنه يسعى إلى الظفر بما يرغب فيه من مثوبة من الله، فيحج لينخلع عن أوزار الدنيا ومآثمها. ولا شك في أن سلوك الرحالة في هذه الحالة هو جزء من الكل، لأن نشاط الرحالة يمثل فيه حسا دينيا مشتركا بين مختلف فئات المجتمع المسلم التي تمفو إلى أداء فريضة الحج، استجابة لتعاليم الدين الإسلامي.

رحلة الحج.. أشواق عارمة وعواطف ملتبهة

ومهما بدت رحلة الحجاج المغاربة في ذهابهم وإياهم محاطة بالمخاطر ومحفوفة بالمكاره، فإن حسورهم الروحية والثقافية إلى البقاع المقدسة، بقيت موشوكة وقوية. فلقد عظم المغاربة هذه البقاع وعبروا عن شوقهم لزيارتها، و"إن هذا الشوق والحنين للأماكن المقدسة، ليس تعظيما للمكان وإنما للرسول نزيل ذلك المكان، وفي حبه حب للرسول ﷺ". ولعل الرحلة الحجّية من هذا المنطلق تمثل امتدادا للشوق العارم والعاطفة الدينية الملتبهة، فلا يشفي غليل المسلم إلا أن يظل مستحضرا جلال المكان وقداسته، ولا يستطيع هذا المسلم أن يفارق البيت الحرام إلا بأسى وشجن. والأحب في ذلك - كما نقرأ في رحلة أنس

الساري- ألا يصرف بصره عن البيت حتى ينصرف. فليس عجبا بعد هذا أن يعدد الرحالون مزايا زيارة قبر الرسول ﷺ، ثم يسترسلوا في الحكى الذي يهدف إلى استثارة الهمم من أجل تحريك النفوس في اتجاه التعلق بحب هذا النبي الكريم والاستمسك بجبل الدين الذي بعث به.

ونستطيع الجزم هنا بأن توظيف الرؤيا في هذا المقام يصبح أداة تربوية بالغة التأثير، حتى إن بعضهم يقول بأنه رأى النبي ﷺ في النوم، فسأله يا رسول الله هؤلاء الذين يأتونك أتفقه قولهم؟ قال: "نعم، وأرد عليهم". فمن وحي هذه الرؤيا تولد بذرة أدبية مخصوصة حيث تتحول وتيرة الخطاب من حكى ووصف إلى مباشرة وتوجيه عن طريق استثمار مرّن لبلاغة الالتفات، على نحو ما نجد في هذا الكلام الجامع بين النثر والشعر:

"فيا أيها الكتيب، انظر ما أجمل صفات هذا الحبيب، وما أكرمه على الرقيب المحيب. تالله إنك ما رأيت مثله ولا ترى، فكيف تطيق عنه مُصطبرا؟! كيف لا تظهر عليه تلهفا وتحسرا؟! هذا وقد بصرك بالكتاب والسنة، فأصبحت متبصرا. ووعدك بالجنة، وكان لك مبشرا. فيا من يدعي حبه وقد كذب في دعواه وافترى، أين موافقتك لأفعاله، أين أتباعك لأعماله وأقواله؟ إنك والله لا تقفو من أثره أنرا. أما بلغك أنه كان يبيت من الجوع طاويا، ويصبح من التهجد ذاويا، ومن القيام حاويا، وقد عرضت عليه الكنوز، فلم يرض لها نظرا، كان يقطع الليل سهرا، ويسط لمولاه كفا مفتقرا، وينكسر رأسه معتذرا، ويسأل في خلوته لأتمته أن تدخل الجنة زمرا...". وأنشدوا:

يا سائقا يطوي السباسب والفلا
مهلاً، فإن الخير في أم القرى
لا تنزلن بغير يشرب إنّه
سطعت بأنوار الرسول كما ترى
عجبا لتربتيهأ تداس ولو درى
الماشي بما ما داس مسكا أذفرا
شوقي لتلك الأرض شوق موله
ولع البكاء بطرفه فاستعبرا

فنحن نرى من خلال هذه الأبيات أن حديث الشوق يلتحم التحاما طبيعيا بتداعيات الحديث عن سلوك الارتحال إلى بيت الله لأداء فريضة الحج، سواء في ذلك أكان هذا السلوك متحققا بصورة فعلية أم كان مثالا ذهنيا وصورة نموذجية متخيلة تتوثب



إليها نفس المسلم على نحو فطري.

رحلة النور.. والسير نحو المطلق

ومن هذا المنطلق، نستطيع أن نقول إن الرحلة بمعناها الديني، تُختزل اختزالاً مكثفاً في رحلة الحج التي نعتقد أنها خير ارتحال، لأنها نشدان للمطلق. وإذا لم يستطع المسلم إليها سبيلاً، فما جعل الله لأحد سلطاناً على مشاعره، حتى يجرمه من التشوّف إليها عن طريق ابتغاء معادل روحيّ وعمل شرعيّ يسمو به إلى مراتب الطمأنينة التي ما خصّ ببلوغها غير من شرح الحق نفسه وأشرق فيه

عبد المطلب الثاني
سنة ١٨٧٠ - ١٨٧٠
سنة ١٨٧٠ - ١٨٧٠

بالإحسان. ثم إن ما في قلب الإنسان المؤمن من أنواع المحبة ودرجاتها للذين يرتبط بهم بعلاقات معينة، إنما هي ترشّحات من تلك الاستعدادات للمحبة الإلهية.

ولا يخفى أن تفكير الرحالة المسلم في زمن سفره تفكير بالمثال باعتبار أنه يستند إلى معيار دينيّ ويحتكم إلى سلطة هذا المعيار، حيث لا يقدر بمبدأ

أو يرجح رأياً على آخر إلا بموجب الإذعان إلى هاتاه السلطة. ثم إنه يحتفظ لنفسه بهامش من الحرية في مساق مفاعله للعوالم الحضارية التي يكتشفها. وهكذا فمسافر من قبيل إبراهيم الإلغنيّ مثلاً أن يزور في مدينة الجزائر مسجد "الباي" الذي كان في الماضي كنيسة، وله أن يُعجب بجمال هندسته وبهاء شكله، لكن الشيء الذي يثير هذا المسافر المسلم هو السلوك الذي يرمز إلى وحدة الكيان الروحي عند المسلمين باختلاف أقطارهم وجنسياتهم. بل إن هذا السلوك هو مما همّ الإلغنيّ بتدوينه بصيغة مباشرة وصريحة لما تحدّث عن نظام الصلاة في مسجد "الباي"، حيث لم يخف إعجابه بهذا النظام، وكذا بانتظام المصلين ورعايتهم لأداب الصلاة في الجماعة هناك.

ولقد جمع هذا الكاتب في رحلته بين روح نقدية حضارية واضحة، واحتكام إلى المثال الدينيّ، فكانت صورة هذا الجمع



عبد المطلب الثاني
سنة ١٨٧٠ - ١٨٧٠
سنة ١٨٧٠ - ١٨٧٠

نور الدين

الصحيح. إذن تُختزل الرحلة

الدينية في "رحلة النور والضياء" على الشاكلة التي

حاولنا إثباتها آنفاً في سياق قراءتنا للدلالات اللغوية والثقافية لكلمة الرحلة ذاتها. وإن النور الذي نتحدث عنه هو نور محمد ﷺ، وهو نور من نور الله.

لعل الرحلة على هذه الصفة محبة غير محدودة، فهي سعي مسؤول ببلوغ غاية جليلة. ولعل هذه الغاية هي اللذة الروحية الصحيحة التي تتوق إليها نفس الإنسان، ولا تسعد إلا بما؛ لأن هذا الإنسان جُبل على محبة غير متناهية لخالق الكون، خصوصاً أن الفطرة البشرية تكن حبا للجمال ووداً للكمال وافتتاناً



تفريعا مناسباً لنواة الموقف الديني الذي يعتدُّ بالعقل المؤمن المقر بالتوحيد، والمرجِّح للأخذ بالمصلحة الدينية، والبعيد عن غلواء التعصب الذي لا طائل من ورائه.

القدس الشريف.. محط قلوب الرحالين

ولا بد لنا في هذا السياق المتعلق بالتلاحم القومي بين الرحلة والدين أن نشير إلى الآثار التي رآها الرحالة المسلمون في القدس، والتي تحدثوا عنها بلغة تغمرها العاطفة الدينية. ولا ننكر في هذا الصدد أن أسباب الرحلة إلى القدس كثيرة، لكن النبرة الدينية القوية في وصف الرحالين المسلمين لبيت المقدس، تبيِّن أن أعظم تلك الأسباب هو الدين، بل هو سبب نكاد ندرج كل الأسباب الأخرى في أطوائه.

إن الحديث عن القدس وعن المسجد الأقصى يتخذ عند الرحالين المسلمين بعدا دينيا واضحا، لهذا يحسُّ المطالع للنصوص الرحلية المغربية، قديمها وحديثها، بأن المواضيع المقدسة تحظى بأهمية دينية خاصة. وتلك مزية نراها في رحلة ابن عثمان المكناسي إلى القدس التي اختلفت عن رحلته إلى القسطنطينية. فمن المحقق أن ابن عثمان قد اعتمد في روايته للقدس وصفا خاصا "يعكس البعد الروحي لهذه المدينة، كما يعكس لنا ميول المؤلف الروحية وتقواه ومعرفته الواسعة بالعلوم الدينية". ويمكن القول بأن اهتمام ابن عثمان بجغرافية المكان لم يستتقص من قدر اهتمامه بالجانب الديني.

وربما كانت كل المسالك الصعبة، وكل المتاعب المترتبة عن السفر والمخاطر التي قد يتعرض إليها المسافر في اتجاه التحامه بالمواضع المقدسة في القدس الشريف، أشياء هيَّبة بالقياس إلى حجم السعادة الروحية التي يسعى هذا المسافر إلى تطلُّها. ففي مثل هذه الأحوال تكون قوة الجذب الروحي أشدَّ عتوا من كل العوامل البيئية، من جذب وقيظ واختناق، ومن كل نزع نفسي، من فزع وارتكاس. هذه القوة هي الدافع الرئيس الذي يؤدي بالمرء إلى الاستخفاف بكل عارض من العوارض التي تحجب شوقه إلى معانقة ما هو مطلق.

الرحلة الإسلامية علم ومعرفة

ولامتري في أن مفهوم السفر يحتفظ في ظل الرحلة بمعناه الإسلامي بكثير من الخصوصية. فللمسافر المسلم في سفره استفادة نفسية لا اعتبار يكمن في أن السفر في أساسه حركة انفعالية غريزية

تتمثل في طرح الهموم ونزع الغم، إلا أن هذه الحركة تستتبعها هنا مجاهدة دينية روحية تتحصَّل عنها فوائد علمية وتثقيفية. ومن أجل ذلك، فإن نعمة السفر تستحق أن يُحمد الله عليها.

ولا يتخلى الرحالة المسلم عن منطلقاته الدينية وهو يسعى إلى بيان وظيفة السفر عنده. وهذه المنطلقات كثيرا ما يتم الإفصاح عنها صراحة في استهلال الرحلة المزمع تدوينها، كأن يحمّد الرحالة ربّه الذي سيّر سيرة العالم وقَيَّضَ له أعوانا يعضدونه، وأنصارا يحمّدونه، ثم يذكر الرسول ﷺ الذي جفاه أهل بلده ووده الغرباء، فهاجر هجرة طيبة إلى المدينة الغراء.

إن السفر - كما يفهمه جل الرحالين المسلمين - لا يراد لذاته، وإنما يراد لما يتحقق بواسطته من ثمار علمية نافعة، حيث "يزداد بالسفار وجوب البراري والبحار معاشرة أجناس العالم الشاسعة البلاد والنظر فيما أدعوه من البدائع التي ليس لها نفاذ. وأما من لازم وطنه، ولم يفك من أصر الدار رسنه، فقد عاش كالصغير الذي يبكي لفراق الحج، وكان ضيق العطن، قليل الحجة".

من الواضح إذن أن هذا المفهوم الوظيفي للسفر الذي يتمثله كل رحلة مسلم يمتلك رغبة في تحصيل المعرفة وطلب الحقائق العلمية، هو مفهوم يكاد يكون مألوفاً في المقولات التراثية المأثورة عند المسلمين. فليس مصادفة بعد هذا أن نجد فيها تكرارا لما يدل على ارتباط العلم بالسفر، إذ بفضل الفكر والعادات التي رسخها علماء الإسلام بات جليا أن السياحة تفكر وتدبر، وأن الرحلة سعي ومجاهدة وتأمل في ملكوت الخالق، وأن الانتقال بين الأصقاع، إن هو إلا وسيلة للتبحر في العلوم على سائر أنواعها. ■

(٤) باحث أكاديمي، تطوان / المغرب.

المصادر

(١) المقدمة لابن خلدون.

(٢) من ملامح الرحلة المغربية، فاطمة خليل، مجلة البحث العلمي، ع ٤٠، ١٩٩١.

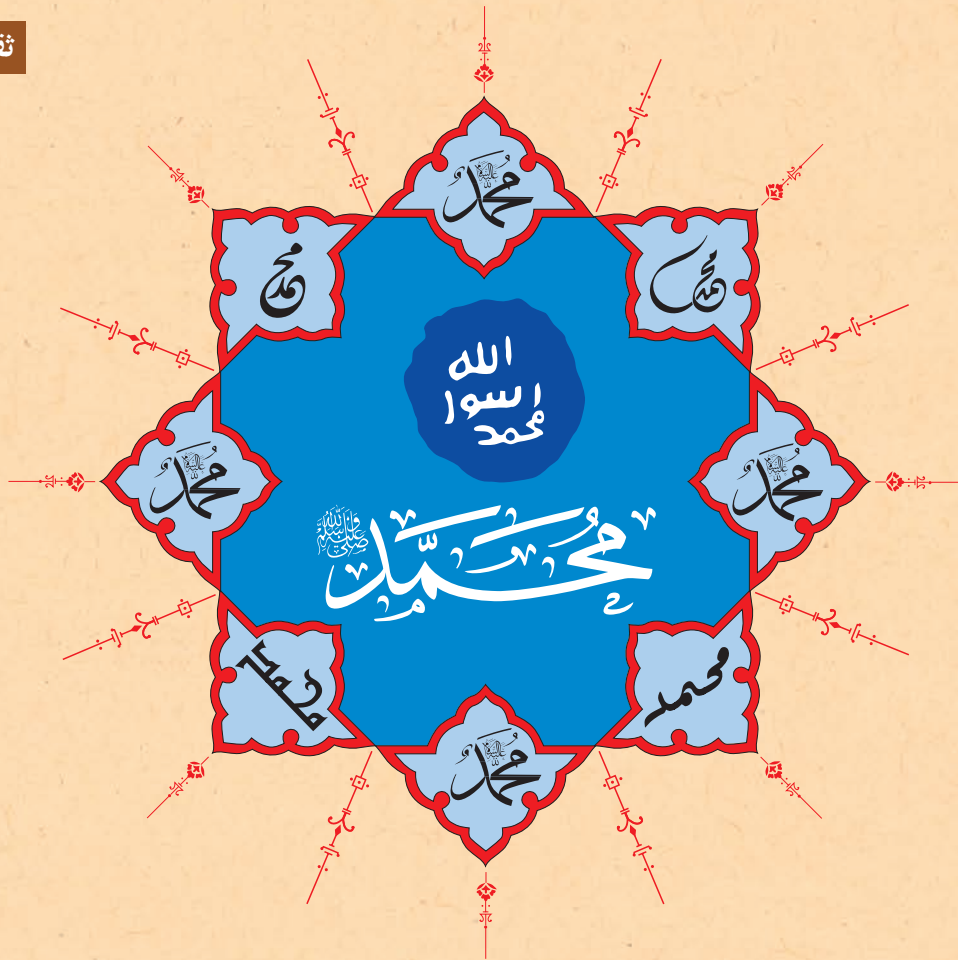
(٣) من صلات الإخاء والصفاء والعلم والرواية بين رجالات تونس والمغرب، محمد بن الخوجة، مجلة المناهل، ع ٦٤، ١٩٧٦.

(٤) سعيد النورسي، نظرة عامة عن حياته وآثاره، إحسان قاسم الصالحي.

(٥) رحلة ابن عثمان المكناسي إلى القدس الشريف لمحمد المنوني و د. محمد بن عبود، مجلة المناهل، ع ٣٩، ١٩٩٠.

(٦) رحلة الشيخ الطنطاوي إلى البلاد الروسية.





الخط العربي . . ذروة الجمال وقمة الإبداع

أحمد عبيد*

له شخصيته المعبرة عن كل عصر؛ فكان كالكائن الحي ينمو ويتفرع ويتجدد باستمرار حتى بلغت أنواعه اثنتين وثمانين نوعاً متميزاً بعضها واندر، لأنه لم يكن محاولة أصيلة للتجديد ولم يستطع أن يعكس الضروريات الاجتماعية لحياة الناس، وعاش البعض الآخر حياة الناس فتجلت في حروفه عبقرية الفنان العربي المسلم حتى بلغت ذروة الجمال وقمة الإبداع. ولا نظن أن أمة من الأمم قد تداولت الكتابة بهذا الشكل فجعلت منها فناً قائماً بذاته كما حدث في حضارتنا العربية الإسلامية؛ فكان الخط العربي ولا زال أصل الفنون جميعها لأنه يستمد نبهه وشرفه من كتابة آيات القرآن الكريم.

الخط العربي من البداوة إلى الفنون

تلقى العرب الكتابة وهي على حالة من البداوة الشديدة، ولم

ما زلت أذكر كلمات أستاذ مادة المخطوط العربي في الجامعة حين كان يقول: "لا تجد أمة من الأمم تجعل من الكتابة عنصراً جمالياً مثل أمتنا الإسلامية، فأنت تعلق على جدران بيتك آيات قرآنية ليس فقط للترك، ولكن لجمال خطوطها وروعة تكوينها".

نعم، فلكل أمة فنونها التي تعترف بها وتعتبرها جزءاً من حضارتها وتراثها. ويعد الخط العربي أهم ما نفخر به من بين فنوننا الإسلامية والعربية؛ فهو فن عربي إسلامي برع فيه أجدادنا وتفننوا فوصلوا إلى مرتبة الأصالة وبلغوا في أنواعه وتصميماته وزخارفه درجة العظمة والخلود. وقد عبر الخط العربي خلال مساره الطويل عن ملامح حضارتنا العربية الإسلامية، وعكس روحها وطبيعتها، ومثل تطورها ومعاناتها.

فقد استمر الخط العربي في تاريخ الفن العربي الإسلامي تياراً

لن يكون لديهم من أسباب الاستقرار ما يدعو إلى الابتكار في الخط الذي وصل إليهم، ولم يبلغ الخط عندهم مبلغ الفن إلا عندما أصبحت للعرب دولة تعددت فيها مراكز الثقافة ونافست هذه المراكز بعضها بعضاً على نحو ما حدث في الكوفة والبصرة والشام ومصر؛ فاتجه الفنان المسلم للخط بحسنة ويجوده ويبتكر أنواعاً جديدة منه.

وقد كان العرب يميلون إلى تسمية الخطوط بأسماء إقليمية لأنهم استجلبوها من عدة أقاليم فنسبوا إليها مثلما تنسب السلع إلى أماكنها؛ لذلك عُرف الخط العربي قبل عصر النبوة بالنبطي والحيري والأنباري، لأنه جاء إلى بلاد العرب مع التجارة من هذه الأقاليم. وعندما استقرّ الخط العربي في مكة والمدينة وبدأ ينتشر منها إلى جهات أخرى عُرف باسميهما المكي والمدني.

الخط الكوفي.. ليونة ودقة

يظن كثيرون خطأً أن الخط الكوفي قد نشأ في الكوفة، لذلك قد نسب إليها. والواقع أن هذا الخط الكوفي قد سُمي بهذا الاسم لعناية الكوفة به وليس لأنه نشأ فيها؛ حيث ازدادت حركة تهذيبه وتجميل حروفه وبهذا انفرد باسم "الخط الكوفي". وأرجح الأقوال في تاريخ الخط الكوفي أنه اشتقّ من الخط الحيري أو الأنباري، وسبب تسميته بعد ذلك بالخط الكوفي لأنه خرج وانتشر في مدينة الكوفة إلى أنحاء مختلفة من العالم الإسلامي مع الجنود الفاتحين، وذلك في عصر ازدهار الكوفة.

وقد كان للكوفة نوعان أساسيان من الخطوط؛ نوع يابس ثقيل كان يسمى "الخط التذكري"، وكان يستخدم في الكتابة على المواد الصلبة كالأحجار والأخشاب ويتميز بالجمال والزخرفة، وكان يخلو أحياناً من النقط وترابط الحروف. ونوع لين تجري به اليد في سهولة، وهو الخط الذي انتهى إلى الكوفة من "المدينة" وكان يسمى "خط التحرير"، وكان مخصصاً للمكاتبات والتدوين والتأليف.

وقد نتج من المزج بين الخطين نوع ثالث يتصف بالرصانة والجمال، وهو "خط المصاحف" الذي يجمع بين الجفاف والليونة. وظل هذا الخط هو الخط المفضل طيلة القرون الثلاثة الهجرية الأولى.

وقد استنبطت من الخط الكوفي أنواع فنية وزخرفية قسّمها

إلا أن الخط العربي لم يقدر له أن ينال قسطاً من التجديد والإتقان إلا في العراق والشام بعد أن فرغ المسلمون إلى التجويد والإبداع فيه بعد أن فتح الله عليهم البلاد وأصبحت لهم عمارة وفنون واحتاجوا إلى الدواوين. وما يقال عن العراق يمكن أن يقال عن الشام كذلك؛ فقد اتسعت رقعة الدولة في العصر الأموي، وأصبحت دمشق عاصمة الأمويين، وظهر في هذا العصر الترف والميل إلى البذخ والتحضّر، ونشطت حركة العمران فظهرت الكتابات على الآنية والتحف واعتُني بكتابة المصاحف وزخرفتها.

وفي العصر العباسي ترسّخت الكتابة وازدهرت الخطوط وتنوعت واحتص كل إقليم بنوع من الكتابة. وجدير بالذكر أن الأقلام (الخطوط) في ذلك العصر كانت تسمى بمقاديرها كالثلث والنصف والثلثين، كما كانت تنسب إلى الأغراض التي كانت تؤدّيها كخط التوقيع، أو تضاف إلى مخترعها كالرئاسي نسبة إلى مخترعه. ولم تعد الخطوط بعد ذلك تسمى بأسماء المدن إلا في القليل النادر.

وكما جعل المصريون كتابتهم على ثلاثة أنواع: الهيروغليفي (الكهنوتي)، والهيراطيقي (الدواويني)، والديموطيقي (الشعبي). كذلك كان الأمر في خطوط العصر العباسي، فكان لكل خط اختصاصات معينة، ومن ذلك قلم الطومار: وكان مخصصاً



مؤرّحو الفنون الإسلامية إلى "الكوفي البسيط"، و"الكوفي المورق"، و"الكوفي المضفر المترابط"، و"الكوفي المهندس".

خط الثلث.. أمّ الخطوط

ويسمى خط الثلث بأُمّ الخطوط وأصلها؛ فلا يعد الخطاط خطاطا إلا إذا أتقن خط الثلث وهو أصعب الخطوط، يليه النسخ، ثم الفارسي.. أما عن تسميته فقد كانت الخطوط (الأقلام) تنسب إلى قلم الطومار وهو أكبر الأقلام مساحة، وعرضه أربع وعشرون شعرة من شعر البرذون (حيوان يشبه البغال والحيل ويستخدم في نقل الأحمال). وقلم الثلث أو خط الثلث هو بمقدار ثلث هذا القلم (أي ثلثي شعرات) لذلك سمي بخط الثلث. وهكذا في أسماء بعض الخطوط الأخرى كقلم الثلثين وقلم النصف.

وينسب إلى الوزير الخطاط "علي بن مقله" وضع قواعد خط الثلث، وقد سمي خط الثلث في العصور المتأخرة بـ"المحقق"، وذلك لأن كل حرف من حروفه يحقق الأغراض المرادة منه. ويستعمل خط الثلث في الكتابة على جدران المساجد والمحاريب والقباب والواجهات والمتاحف، وكذلك في عناوين الصحف والكتب، كما تكتب به أوائل السور في المصحف الشريف، وهو خط يحتمل كثيرا من التشكيل.

خط النسخ.. خادم القرآن

ينسب البعض اختراع خط النسخ إلى "عبد الله الحسن بن مقله" وهو أخو الوزير الخطاط علي بن مقله. وهناك من يرى أن خط النسخ أقدم من ابن مقله بكثير. وأيا كان الأصل في هذا الخط فقد طور ابن مقله هذا الخط إلى الشكل الذي هو عليه الآن حتى صار يختلف عن الخطوط السابقة. وقد سمي هذا الخط بخط النسخ لأن الكتاب كانوا ينسخون به المصحف الشريف ويكتبون به المؤلفات، وكان ابن مقله يُسميه "البدیع" لشدة جماله. ويقترّب خط النسخ من خط الثلث من حيث الجمال والروعة والدقة، وهو يحتمل التشكيل أيضا ولكن بشكل أقل من الثلث ويزيده التشكيل (النقط) حُسنا ورونقا.

ويكتب بخط النسخ القرآن الكريم والحديث الشريف كما يصلح لبعض اللوحات الكبيرة، فقد كتب به علي التحف المعدنية والخشبية وعلى الجصّ والرخام.

وقد حظي خط النسخ بعناية كبيرة في العراق في العصور العباسية، وقد بلغ في تحسينه في عصر "الأتابكة" حتى عرف

بـ"النسخ الأتابكي"، وهو الخط الذي كتبت به المصاحف في العصور الإسلامية الوسطى، وحل محل الخط الكوفي سواء في كتابة المصاحف أو النقوش على جدران المساجد، وأصبحت السيادة لخطي النسخ والثلث. ويمتاز خط النسخ عن خط الثلث في أنه يساعد الكاتب على السير بقلمه بسرعة أكثر من خط الثلث، وذلك لصغر حروفه وتلاحقها مع المحافظة على تناسق الحروف وجمالها.

الخط الفارسي.. فن وهوية

كان الفرس قديما يكتبون بالخط "الفهلوي" أو "البهلوي" نسبة إلى "فهلا" الواقعة بين همدان وأصفهان وأذربيجان. وعند الفتح لبلاد فارس انتقلت الكتابة والحروف العربية إليهم، وأصبحت الكتابة بالعربية هي كتابتهم الرسمية والقومية، وحلت الحروف العربية محل الحروف الفهلوية الفارسية.

وقد اهتم الفرس بالخط خاصة في أوائل القرن الثالث الهجري؛ حيث قويت شوكتهم في الدولة العباسية في فارس والعراق، فعمدوا إلى خط النسخ وأدخلوا على رسوم حروفه أشياء زائدة فميزته عن أصله. ويسمى الخط الفارسي أيضا خط "التعليق"، وقد كتب بهذا الخط كتب الأدب والدواوين.

أما عن خط التعليق الذي يكتب به الفرس اليوم فهو نوع من خط التعليق القديم المخصص للأعمال الرسمية، وهو السائد عندهم حاليا. وقد برع الفرس في خط التعليق فأخذوا يزيحونه ويحسنونه حتى امتاز بجمال حروفه وميلها. كما أن حروفه صارت مختلفة السمك والطول تبعا للقاعدة والذوق، كما تمتاز حروفه بدقتها وامتدادها. وهو لا يحتمل التشكيل ولا التركيب وهو في ذلك يشبه "خط الرقعة". ويستعمل الخط الفارسي كذلك في كتابة عناوين الكتب والمجلات، وقد سمي بالتعليق لأن حروفه معلقة بين خطي النسخ والثلث أي أنه يجمع بينهما. ويستعمل الخط الفارسي الآن للكتابة في إيران والهند وأفغانستان وباكستان.

ويوجد ثلاثة أنواع من الخط الفارسي: "الفارسي العادة" وهو المعروف حاليا بالتعليق؛ و"خط شكسته" وهو خط صغير ورفيع، وتعني كلمة "شكسته" المكسور ويسمى بالتركية "قرمه" تعليق؛ و"شكسته أمير" وهو خليط من النوعين السابقين.

خط الرقعة.. إيقاع سريع

يعد خط الرقعة (بضم الراء) من الخطوط المتأخرة، أي حديثة



أن هذا الخط ما زال يستعمل حتى يومنا هذا في مراسلات الملوك والأمراء والرؤساء، وكذلك في كتابة البراءات والمراسم والأوسمة والرفيعة وبطاقات المعايدات، فضلا عن قيمته الفنية في اللوحات والنماذج التشكيلية.

الطغراء .. ظل جناح الطائر المقدس

"الطرة" أو "الطغراء" أو "الطغرى" هو شكل جميل يكتب بخط الثلث على شكل مخصوص. وأصلها علامة سلطانية تكتب في الأوامر السلطانية أو على النقود الإسلامية أو غيرها، ويذكر فيها أسم السلطان أو لقبه. وقيل إن أصل كلمة "طغراء" كلمة تنارية تحتوي على اسم السلطان الحاكم ولقبه، وإن أول من استعملها السلطان الثالث في الدولة العثمانية "مراد الأول".

ويروى في أصل الطغراء قصة مفادها أنها شعار قديم لطائر أسطوري مقدس كان يقده سلاطين الأوغوز، وأن كتابة طغراء جاءت بمعنى ظل جناح ذلك الطائر.

وأقدم ما وصل إلينا من نماذج شبيهة بالطغراوات ما كان يستعمل في المكاتبات باسم السلطان المملوكي الناصر حسن بن السلطان محمد بن قلاوون ٧٥٢ هـ.

وقد أدى كتابة الاسم على شكل الطغراء إلى التصرف في قواعد الخط، ويكون الطغراء في الغالب مزيجا من خط الديواني وخط الثلث.

خط التاج .. ذهب التاج وبقي الخط

وقد ابتدع هذا الخط في العصر الحديث على يد الخطاط المصري محمد محفوظ الخير الفني في المحاكم في عهد الملك فؤاد، وكانت فكرة هذا الخط هو وضع إشارات في أعلى الحروف تمثل التاج الملكي. وقد رجع استخدامه مع حروف خط النسخ لأنها أجمل وقعا فيه من سائر الخطوط وإن كان قد استعمل مع خط الرقعة. ■

(٤) كاتب وباحث، إسلام أون لاين. نت / مصر.

المصادر

- (١) الخط العربي: أصوله، نمضته، انتشاره، غفيف بهنسي، دار الفكر، دمشق.
- (٢) الخط العربي: رحلة التحسين والتجويد، باسم دنون، دار الكتاب، القاهرة.
- (٣) الخط والكتابة في الحضارة العربية، يحيى وهيب، دار الغرب الإسلامي، بيروت.
- (٤) الخطاطة: الكتابة العربية، عبد العزيز الدالي، مكتبة الخانجي، القاهرة.

الظهور، وقد اخترعه ووضع قواعده الأستاذ "ممتاز بك مصطفى أفندي المستشار"، وكان ذلك في عهد السلطان "عبد المجيد خان" (ت: ١٨٦١م). ويرى البعض أن نشأته ترجع إلى عهد السلطان "محمد الفاتح".

وبمتاز خط الرقعة بقصر حروفه، ويحتمل أن يكون قد اشتق من خط الثلث والنسخ. وخط الرقعة خط جميل يمتاز باستقامة حروفه أكثر من غيره من الخطوط، وهو لا يحتمل التشكيل أو التركيب، وفيه وضوح ويقرأ بسهولة، ويعد أسهل الخطوط جميعا كما أنه يعد الأصل في الكتابة اليومية لدى الناس، حيث يستخدم في المراسلات والكتابات اليومية وعناوين الكتب والمجلات وفي الإعلانات التجارية، وذلك لبساطته ووضوحه وبعده عن التعقيد.

ويوضح أحد الخطاطين خصائص هذا الخط فيقول: "وقد جاءت بساطة خط الرقعة لكون حروفه خاضعة للشكل الهندسي البسيط، فهي سهلة الرسم معتمدة في ذلك على الخط المستقيم والقوس والدائرة فضلا عن طواعيته لحركة اليد السريعة، إضافة إلى كون حروفه واضحة القراءة ذات شكل جميل".

الخط الديواني .. لم يعد سرًّا

ترجع نشأة هذا الخط إلى العصر العثماني، وقد سمي هذا الخط بالديواني لاستعماله في الدواوين العثمانية. وقد كان هذا الخط قديما في الخلافة العثمانية سرًّا من أسرار القصور السلطانية لا يعرفه إلا كاتبه أو من ندر من الطلبة الأذكياء، لذلك كانت تكتب به جميع الأوامر الملكية والإنعامات والفرمانات.

وقد انتشر الخط الديواني في عصرنا الحديث انتشارا كبيرا بفضل مدرسة الخطوط العربية الملكية بمصر، حيث بسّطه وطوّر فيه الخطاط المصري "مصطفى بك غزلان" حتى أطلق عليه في مصر الخط الغزلاني. وينقسم الخط الديواني إلى نوعين: "ديواني رقعة" وهو ما كان خاليا من الشكل والزخرفة، ولا بد من استقامة سطوره من أسفل فقط؛ "ديواني جلي" والجلي بمعنى الواضح الظاهر، وهو ما تدخلت حروفه وكانت سطوره مستقيمة من أعلى ومن أسفل، ولا بد من تشكيله بالحركات وزخرفته حتى يكون كالقطعة الواحدة.

ويتميز الخط الديواني بتشابك حروفه مما يصعب على غير المتخصصين قراءته أو الكتابة به. والخط الديواني جميل ومنسق للغاية، وتكون كتابته الدقيقة عادة أجمل من الكبيرة. ومن الطريف





النموذج الإسلامي لتحرير المرأة

أ.د. محمد عمارة*

جميعاً من نفس واحدة، وسأوى بينهم جميعاً في حمل أمانة استعمار وعمران هذه الأرض عندما استخلفهم جميعاً في حمل هذه الأمانة. كما سأوى بينهم في الكرامة عندما كرم كل بني آدم، وفي الأهلية والتكاليف والحساب والجزاء.. مع الحفاظ على فطرة التمايز بين الأنوثة والذكورة لتتم نعمة السعادة الإنسانية بشوق كل طرف إلى الطرف الآخر المتميز عنه -ولو كان ندأً مماثلاً لما كان "آخر" ولما كان مرغوباً تهفو إليه القلوب - ولتكون هذه المساواة في الخلق وحمل الأمانة والكرامة والأهلية والتكاليف والحساب والجزاء والاشتراك متضامين في أداء فرائض العمل الاجتماعي العام... لتكون هذه المساواة هي مساواة تكامل الشقين التمايزين، لا مساواة الندبين المتماثلين والمتنافرين.

وينطلق هذا النموذج الوسطي من نصوص ومنطق وفقه القرآن الكريم الذي جعل الرجل بعضاً من المرأة والمرأة بعضاً من الرجل ﴿لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ﴾ (آل عمران: ١٩٥). فكل طرف هو لباس للطرف الثاني ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ﴾ (البقرة: ١٨٧). وقد أفضى بعضهم إلى بعض ﴿وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا﴾ (النساء: ٢١). وقامت روابط هذا الميثاق الغليظ -ميثاق الفطرة- الجامع لهم جميعاً على بنود عقد وعهد المودة والرحمة والسكن والسكينة ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ (الروم: ٢١). كما ينطلق هذا النموذج الوسطي -في تحرير المرأة وإنصافها-

في قضية المرأة وتحريرها لن يختلف أغلب العقلاء على أن المرأة قد حُمّلت تاريخياً وحتى عصرنا الراهن وفي كل الحضارات من المظالم والقيود أكثر مما حُمّلت الرجال. ومن ثم فإن أغلب العقلاء لن يختلفوا على أن للمرأة "قضية"، وأن تحريرها -وإن ارتبط بتحرير الرجل- إلا أنه يحتاج إلى كثير من التمييز وكثير من الاختصاص وكثير من الاهتمام. لكن الأمر الذي يثير الكثير من الاختلاف -بل والخلاف- على النطاق العالمي، هو "النموذج الأمثل" الذي يحقق التحرير الحقيقي للنساء.

فهناك النموذج الغربي المتطرف، نموذج الحركات الأنثوية الغربية التي تريد تمركز الأنثى حول ذاتها في عالم خال من الرجال، تثور فيه الأنثى ضد الرجل وضد الفطرة السوية التي فطر الله الناس عليها، وضد كل القيم والديانات، وهو نموذج بلغ في تطرفه وشذوذه حد الجنون. وهناك نموذج الجمود والتقليد الذي حمل ويحمل التقاليد الراكدة على الدين، فيثبتها ويكرسها ويقدها حتى لكأن تحرير المرأة في هذا النموذج هو تحريرها من كل دعوات ودعاوى التحرير.

النموذج الوسطي في تحرير المرأة

وهناك النموذج الوسطي المتوازن المعبر عن حقيقة التحرير الإسلامي للمرأة. وهو الذي ينطلق من نصوص ومنطق وفقه القرآن الكريم في تحرير المرأة وإنصافها والمساواة بين النساء والرجال الذين سوى الله سبحانه وتعالى بينهم عندما خلقهم



مع بقائها أنثى، تسعد عندما تكون سوية وتفخر وتباهي بأنوثتها، وتفر وتهرب وتخلج من "الاسترجال"؛ كما يسعد الرجل السوي ويفخر ويباهي برحولته، وينفر من "التخنث" و"الأنوثة"... ينطلق أيضاً من التطبيقات النبوية لنصوص ومنطق وفقه القرآن الكريم. تلك التطبيقات التي حررت المرأة المسلمة، وأنقذتها من "الوَأْد" المادي والمعنوي، وجعلتها طاقة فاعلة في بناء الأسرة والدولة والأمة والحضارة، ومشاركة في سائر ميادين إقامة الدين والدنيا منذ اللحظات الأولى لإشراق شمس الإسلام. كما ينطلق هذا النموذج الوسطي أيضاً من الاجتهاد الإسلامي الحديث والمعاصر الذي أولى المرأة ما تستحق وما يجب لها من العناية كطرف أصيل في المشروع النهضوي المنشود الذي استهدفه تيار الإحياء والاجتهاد والتجديد، مستنداً إلى القرآن الكريم وإلى تطبيقات التحرير الإسلامي للمرأة، في مواجهة تصورات ونماذج الغلو الإسلامي والغلو العلماني جميعاً.

والمودج الوسطي الذي يمثل وسطية الإسلام في تحرير المرأة وإنصافها يباهي الدنيا بنماذج الريادات النسائية اللاتي حررن الإسلام منذ عصر النبوة وحتى العصر الذي نعيش فيه.. ويدعو هذا النموذج إلى اتخاذ هذه النماذج الريادية أسوة وقدوة ومثلاً.

ريادات نسائية في فجر الإسلام

● فخديجة بنت خويلد رضي الله عنها نموذج من نماذج الثمرات الطيبة لهذا التحرير الإسلامي للمرأة.. به كانت أسبق من كل الرجال إلى الإيمان بالدعوة الإسلامية الجديدة والوليدة.. وبه كانت الداعمة - بالعقل والحكمة والمال وأيضاً بالعواطف المعطاءة- لرسول الإسلام، ودعوته وأمه.. حتى كان عام وفاتها "عام الحزن" والحداد للجماعة المؤمنة كلها.

● وأسماء بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنهما كانت نموذجاً من نماذج ثمرات هذا التحرير.. تحمل أمانة سر خطة الهجرة النبوية من مكة إلى المدينة؛ وهي من أخطر التحولات في تاريخ الدعوة والدولة والأمة؛ وتشارك في تنفيذ هذا الحدث الأعظم؛ وتشد أزرها زوجها البطل الزبير بن العوام فتهدى له بيته؛ وترزع له حقله؛ وترعى فرس جهاده وقتاله؛ وتقاتل معه في بعض الغزوات؛ وتربي ولده عبد الله بن الزبير على البطولة والفداء والاستشهاد؛ وتعارض وتجاهه الطغاة، من أمثال الحجاج بن يوسف الثقفي.. ومع كل ذلك تظل أسماء هذه هي الأنثى التي تتزيا بالحشمة الإسلامية والشرقية، فلا تلبس ما يكشف أو يشف، وتحافظ على

مشاعر الغيرة المفرطة عند زوجها.

● والشفاء بنت عبد الله القرشية العدوية رضي الله عنها كانت ثمرة من ثمرات هذا النموذج الإسلامي لتحرير النساء. سبقت إلى الإسلام؛ وبايعت على الدخول فيه وفي أمته ودولته؛ وتميزت بالعقل والرأي والحكمة؛ واشتغلت بتعليم القراءة والكتابة حتى كانت معلمة لحفصة أم المؤمنين؛ وروت أحاديث رسول الله ﷺ.. وكانت تحاوره، وأحياناً تلومه فيعتذر إليها ﷺ؛ وبلغت - في المشاركة في السلطة والدولة- أن ولاها عمر بن الخطاب "ولاية الحسبة" أي "وزارة" التجارات والأسواق، وأوزانها ومعاملاتها.. تراقب وتحاسب، وتفصل بين التجار وأهل السوق، من الرجال والنساء.

● وأم هانئ فاختة بنت أبي طالب رضي الله عنها كانت من ثمرات هذا النموذج في تحرير النساء.. أسلمت عام الفتح (٨هـ)؛ ومع أن زوجها قد فرّ بشركه إلى نجران يوم الفتح، فلقد أجمرت - أي أعطت الأمان- لرجلين من قومه كانا مطلوبين للقصاص الإسلامي؛ ووقفت - لذلك- في وجه أخيها علي بن أبي طالب الذي هم بتنفيذ القصاص فيهما فصارعته حماية لمن أجمرت حتى لم يستطع منها فكاً؛ واستجاب رسول الله ﷺ لعهداها وإجمرتها قائلاً: "قد أجمرت من أجمرت، وأمتاً من أمتت يا أم هانئ.. لكن لا تُغضي علياً، فإن الله يغضب لغضبه!.." فأطلقت

أحاهها فداعبه رسول الله ﷺ قائلاً: "يا علي غلبتك امرأة!.." ولقد بلغ هذا التحرير الإسلامي بأم هانئ الذروة أن خطبها رسول الله ﷺ لنفسه زوجاً وأما للمؤمنين بعد أن فرق الإسلام بينها وبين زوجها المشرك الذي فرّ بشركه إلى نجران، فاعتذرت عن خطبة الرسول - بأدب جم وحكمة بالغة- وقالت: يا رسول الله لأنت أحب إلي من سمعي وبصري، وحق الزوج عظيم، فأخشى إن أقبلت على زوجي أن أضيع بعض شأنى وولدي، وإن أقبلت على ولدي أن أضيع حق الزوج. فقبل المصطفى ﷺ اعتذارها واحترم رغبتها في التفرغ لأولادها.. صنع ذلك وهو القائد المنتصر في لحظات الفتح الأكبر والانتصار الأعظم التي يستبجح في مثلها الفاتحون كل الحدود والسدود. غالب الرسول المنتصر عواطفه الإنسانية، واحترم حرية أم هانئ، وأثنى عليها وعلى ما تمثل من منظومة للقيم.

● وعائشة بنت أبي بكر الصديق - زوج النبي ﷺ وأم المؤمنين- رضي الله عنهما، ثمرة من ثمرات هذا التحرير الإسلامي للنساء؛ كانت الزوجة الرقيقة الحبيبة؛ وراوية الأحاديث وحافظة السنة؛



والفقيهة التي تراجع القراء والرواة والفقهاء والمجتهدين؛ والمشيئة في الشؤون العامة؛ والمتدوقة للفنون التي تعرضها فرقة فنية - من الأحباش - في مسجد النبوة؛ والممارسة لرياضة الجري مع زوجها ﷺ أثناء السفر إلى الغزو والجهاد.

• وحفصة بنت عمر بن الخطاب - زوج الرسول وأم المؤمنين - رضي الله عنهما، كانت من ثمرات هذا التحرير الإسلامي للمرأة؛ سبقت إلى الإسلام بمكة وهاجرت بدينها إلى المدينة المنورة؛ وكانت شاعرة وخطيبة فصيحة وراوية للحديث. وائتمنتها الأمة على حفظ القرآن عندما جمع المسلمون صحائفه على عهد أبي بكر الصديق فحفظته حتى أسلمته إلى الخليفة عثمان بن عفان،

فُنسخت منه المصاحف التي وُزعت على الأمصار؛ وشاركت بالرأي في تدبير شورى الأمة بعد استشهاد أبيها الفاروق؛ ورثته نثرًا وشعرًا وخطبت في الناس بمناقب أبي بكر وعمر؛ وتحدثت عن سنة الإسلام في الاختيار الشوري للخلفاء والبيعة التعاقدية بين الأمة وبينهم.

• ونسيبة بنت كعب الأنصارية - أم عمارة - رضي الله عنها، كانت ثمة ناضجة متألفة من ثمرات هذا التحرير. شاركت في بيعة العقبة الجمعية التأسيسية للدولة الإسلامية

الأولى، فمارست في ظلال الإسلام وتحريره للمرأة قمة الولاية السياسية قبل أربعة عشر قرنًا؛ وشاركت في بيعة الرضوان - تحت الشجرة - عام الحديبية (٦هـ) "على الحرب والقتال" عندما شاع أن قريشًا قتلت مندوب المسلمين إليهم، عثمان بن عفان. وكانت أم عمارة ممن أوفى بما عاهد عليه الله.. ففي يوم أحد كانت ضمن أقل من عشرة هم الذين صمدوا لجيش الشرك فحموا رسول الله ﷺ من القتل.. ويومئذ رآها الرسول وقد كسرت سنه وسالت دماؤه، وهي مشمرة قد ربطت ثوبها على وسطها تقاتل دونه وتتصدى لابن قميمة الذي اندفع نحو الرسول ﷺ قائلاً: أين محمد؟ لا نجوت إن نجأ.. رآها الرسول وهي تتلقى في كتفها الطعنة التي أراد ابن قميمة توجيهها إلى الرسول.. وكانت أمها معها تعصب لها جراحها. وكان معها كذلك في هذه الملحمة ابنها الذي نزل فعضبت نزيهه ثم استنهضته للقتال.

وعندما جُرحت جرحها الغائر في كتفها نادى الرسول على ابنها: "أمك، أمك! اعصب جرحها، بارك الله عليكم من أهل بيت". ثم نادى على أحد الفارين كي يعطيها ترسه لتترس به.. وقال لها في إعجاب: "من يطبق ما تطيقين يا أم عمارة؟!.. لمقام نسيبة بنت كعب يوم أحد خير من فلان وفلان.. ما ألتفت يمينًا ولا شمالًا إلا وأنا أراها تقاتل دوني". أما هي، التي غادرت أرض المعركة يومئذ وفي جسدها ثلاثة عشر جرحًا فلقد قالت لرسول الله ﷺ: ادع الله أن نرافقك في الجنة.. فقال ﷺ: "اللهم اجعلهم رفقائي في الجنة"، فقالت: ما أبالي بعد ذلك ما أصابني في الدنيا.

• وأسماء بنت يزيد بن السكن الأنصارية رضي الله عنها كانت

هي الأخرى واحدة من الكواكب اللاتي حررن الإسلام فأضأن في سماء تحرير المرأة المسلمة. شاركت مع أم عمارة في عقد تأسيس الدولة الإسلامية الأولى ببيعة العقبة؛ وشهدت يوم الفتح الأعظم (فتح مكة)، وقاتلت يوم اليرموك في فتوحات الشام، وقتلت تسعة من الروم بعمود خيمتها؛ وكانت من ذوات الرأي والعقل والحكمة والدين، خطيبة فصيحة تهز أعواد المنابر إذا خطبت، وتقوم على تنظيم النساء المؤمنات، وتترجم المطالبة بما

لهن من حقوق، حتى لقد سميت في كتب السنة والسيرة بـ "وافدة النساء"، أي رسولة وزعيمة النساء في المطالبة بحقوقهن لأنها ذهبت إلى رسول الله ﷺ وهو في المسجد متحدثة باسم نساء المسلمين، فقالت: "أنا وافدة من خلفي من النساء يقلن بقولي وهن على مثل رأيي. إن الله قد بعثك للرجال والنساء. ولقد غلبنا عليك الرجال، فاجعل لنا يومًا من نفسك، تعلمنا فيه.. فوعدهن رسول الله ﷺ يومًا، لقيهن فيه، فوعظهن وأمرهن.. وروت عن رسول الله ﷺ أكثر من ثمانين حديثًا.

تلك مجرد إشارات لأمثلة من النماذج التي جسدت نوعية التحرير الذي أجزه الإسلام للمرأة منذ فجر البعثة النبوية وإشراق شمس حضارة الإسلام. وإذا كانت هذه النماذج شاهدة شهادة صدق على نوعية التحرير ونموذجه، فإن الآفاق الواسعة التي بلغتها موجات هذا التحرير تشهد على عموم النعمة التي تمثلت فيه.

النموذج الوسطي الذي يمثل وسطية الإسلام في تحرير المرأة وإنصافها يباهي الدنيا بنماذج الريادات النسائية اللاتي حررن الإسلام منذ عصر النبوة وحتى العصر الذي نعيش فيه.. ويدعو هذا النموذج إلى اتخاذ هذه النماذج الريادية أسوة وقدوة ومثلاً.

إن الحضارة الإسلامية التي جسدت الإحياء الإسلامي في مختلف ميادين الإبداع الحضاري، لأن الإسلام هو الإحياء في مختلف هذه الميادين ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ (الأنفال: ٢٤).. إن هذه الحضارة الإسلامية قد أفرزت أعلام العلماء - في مختلف ميادين العلم بما في ذلك الفلك والطبيعة والجبر والحساب والهندسة والرياضيات والطب والصيدلة... إلخ. - قبل أن يمر قرن من الزمان على إشراق شمس الإسلام، ناهيك عن العلوم الشرعية والإنسانية والاجتماعية والآداب والفنون. بينما الحضارة الغربية في أوروبا قد ظلت ستة عشر قرناً قبل أن تشهد عالمًا واحدًا في الفلك.

وإذا كان الإيمان الإسلامي، وفقه الدعوة الإسلامية، وشورى هذه الدعوة قد بدأت جميعها بامرأة وهي خديجة بنت خويلد رضي الله عنها.. وإذا كانت علوم الإسلام قد عرفت الريادات من النساء منذ فجر الدعوة وعلى امتداد تاريخها الطويل.. فإن الحضارة الغربية لم تعرف عالمة في النصرانية ولاهوتها. أما هذا الذي سُمّوه في النهضة الأوروبية تحرير المرأة فلقد جاء هو الآخر - كتحرير العلماء - على أنقاض سلطان الدين والكنيسة واللاهوت. ولذلك جاء رد فعل لاديني يحرر المرأة من الدين بدلاً من أن يحررها بالدين.

لذلك كانت رسالة العقل المسلم هي حماية المجتمع المسلم من الوقوع في مستنقع التقليد، تقليد الآخر الغربي. وسواء أكان التقليد للنموذج الغربي المغالي في مناقضة الفطرة والقيم، أم كان تقليدًا للعادات والتقاليد الاجتماعية البائدة، فإنه مردول. وفي النموذج الإسلامي الوسطي لتحرير المرأة بالإسلام النموذج المثالي الذي يحرر المرأة مع الحفاظ على فطرة التمايز بين الأنوثة والذكورة، تلك التي فطر الله الناس عليها، من الذكور والإناث جميعًا. فهو تحرير تسعد به المرأة بدلاً من أن تشقى بالنموذج الغربي للتحرير، أو تظل حبيسة العادات والتقاليد الراكدة التي يحملها البعض زورًا وبهتانًا على حقيقة الإسلام.. ■

يوم انتقل رسول الله ﷺ إلى الرفيق الأعلى كان تعداد الأمة التي دخلت الدين الجديد وانخرطت في رعية الدولة الوليدة ١٢٤,٠٠٠ من المسلمين والمسلمات. وعندما رصد علماء التراجم والطبقات أسماء الأعلام والصفوة والنخبة التي تربت في مدرسة النبوة وتميز عطاؤها في مختلف ميادين العطاء، رصدوا أسماء نحو ثمانية آلاف من صفوة الصفوة، فكان من بينهم أكثر من ألف من النساء. أي إن التحرير الإسلامي للمرأة قد دفع إلى مراكز الريادة والقيادة أكثر من واحدة من بين كل ثمانية من الصفوة والنخبة إبان التحرير الإسلامي في أقل من ربع قرن من الزمان، وهي أعلى نسبة للريادات النسائية في أي ثورة من ثورات التحرير أو نهضة من النهضات.

وإذا كانت رياح الجاهلية قد أعادت بعض التقاليد والعادات التي سبقت وسادت مجتمعات ما قبل الإسلام، فإن هذه التقاليد الراكدة لم تستطع غلبة إنجازات التحرير الإسلامي للمرأة رغم مغالبتها لهذه الإنجازات، فظلت روح هذا التحرير وثمراته ملحوظة حتى في عصور التراجم الحضاري الذي أصاب عالم الإسلام. فظلت حياتنا الاجتماعية الإسلامية زاخرة بنماذج النساء المحدثات والفتيات والشاعرات والأديبات اللاتي بلغن شأوهن في العلم الحد الذي تتلمذ عليهن وأخذ "الإجازة" العلمية منهن عدد من كبار أئمة الفقهاء والحفاظ والمحدثين والمجددين. وعندما رصد عالم التاريخ والتراجم والطبقات "عمر رضا كحالة" أعلام النساء اللاتي تفوقن وبرزن وتقدمن صفوف الصفوة في تاريخنا الحضاري، إذا به يترجم لثلاثة آلاف من أعلام النساء في المحيط العربي وحده، وهو محيط لا يمثل إلا خمس أمة الإسلام.

صحيح أن نسبة الصفوة وأعلام النساء في تاريخنا الحضاري كان يجب أن تكون أضعاف أضعاف هذا العدد، وذلك قياسًا على حجم وتعداد صفوة وأعلام النساء في عهد النبوة. لكن يظل هذا التعداد شهادة صدق للنموذج الإسلامي في تحرير النساء، ووسامًا على صدر حضارة الإسلام تباهي به كل الحضارات. فلقد استعصى هذا النموذج على الهزيمة أمام العادات والتقاليد الراكدة التي عادت فسادت في حقبة تراجع الحضارة الحضاري، فظل فاعلاً على امتداد تاريخ الإسلام، ثم عاد لتتألق معلمه المتميزة في اجتهادات مدرسة الإحياء الإسلامي الحديث والمعاصر.

(٤) كاتب ومفكر إسلامي / مصر.



الإحساسية في فن بديع الزمان النورسي

أ.د. عشراقي سليمان*

ل

على أنه لا بد من التنبيه إلى أن إحساسية بديع الزمان النورسي ليست التناذية تحيل على كوامن شهوية حسية، إنها وجدانية لا حسية، شعورية لا جسدية، روحية لا مادية. وإحساسية النص النوري تبرز في الكيفية المكثفة التي استخدم بها النورسي الأصباغ والتلوينات اللغوية، إذ لَمَّا كان الدافعُ إلى التعبير قلبيا، كان لا بد للأفكار أن تتلبس من الكلمات والصيغ ما يشي بلونها. من هنا تواترت النعوت وأسماء الإشارة والموصول، يقول: من بين وسائل الإشارة والتصوير لفظ "الذي"^(١)، وألفاظ الخبر والحال أو ما في معناهما كالبدل والتمييز والتوكيد. وفيما يلي سنرى كيف غدت الجملة النورية - ونتيجة لهذا الأمر - تستغرق حيزا يسع السطر والسطرين وأكثر، بل والفقرة أحيانا كثيرة.

استغلال الحيز

التوسع في استغلال الحيز المكاني من أبرز ما يعطي لأدبية النورسي صبغتها التشكيلية، ذلك لأن الكلمة في الخطاب التشكيلي هي القيمة المشبعة. وعلى حسب إشعاعها وإيفائها بما تتطلبه الحاجة إلى التعبير وأداء الرسالة يكون موقعها في اللوح والمشهد. من هنا رأينا النورسي يعطي لتقنية الانتشار في الفضاء العناية اللازمة، ورأيناه يخرج - كلما اقتضى الأمر - عن طبيعته البيانية الاقتصادية، فيسترسل ويستطرد ويُطيل نفس السياق. ذلك لأن النورسي كان

كانت فلسفة الإحساسيين (أتباع المذهب الإحساسي) تقوم على علاقة استثمار الضوء والظل (الحركة والسكون). فألواحهم تنطلق إلى البراري والمروج الهادئة، وتسعى لاحتواء نرائم الزمن في سيولته المستديمة، باعتبار أن اللحظة هي إحساس شارد، يتفلت ولا يتيح للريشة أن تقبض عليه.

لقد كانت لعبة الإحساسيين حينها يرتد بالإنسان إلى صفاء البكارة الأولى، وإلى عهود كان الزمن بعدُ مصمما لا يعرف مقاييس إلا مقاييس الطبيعة ذاتها، فالاهتمام بالحركة واللون كما مارسه الإحساسيون هو اهتمام بالغيب وإن لم تُفصح عن ذلك بجلاء أفكارهم. إنما الفنان المسلم حين يتعاطى مهمة التمرس بمشاعره لا يكون موصولا بالكون صلة مبهمه، ولا تستغويه فيه الظواهر الوحشية الساحرة، وهو وإن تشرب من منابع عذوبة ما أبدع الله وسخر، إلا أنه يجد في مهمة تعظيم قدرة الخلاق المبدع وإكبار ملكوته ما يتجاوز لذة الشهوة الحسية. من هنا كانت إحساسية المسلم تسيبها وحمدا وليس مجرد التناذ حسية عُقل. وعلى نحو ما قويت لعبة الألوان والظلال في آثار الإحساسيين، سنجد بديع الزمان سعيد النورسي - رحمه الله - بدوره يجسد في كتاباته نوعا من الإحساسية الخطابية التي صبت مشحونها من المشاعر في قوالب روحية تزكتُ بها المضامين وتسامت المقاصد.



يدرك قيمة الخطاب وأن الكلمة هي وسيلته الوحيدة للوصول إلى الآخر، ولذا كان حرصه كبيراً على أن تأتي الصورة التي تُشكّلها الكلمات في مستوى من الاكتمال والتعبيرية بحيث تفي بالغرض التبليغي وتؤدي وظيفتها على نحو فعّال.

وخطته في التعامل مع اللغة أن يرصد الدوال الأكثر قدرة على تصعيد شحنة الأداء؛ فقوة الإفادة تأتي من محصلة الخطاب عامة، لأنه خطاب يتحرى الأصالة التصريحية الدقيقة ولا يعبأ بالإنشائية الجوفاء أو الزخرفة الفارغة. ثم تأتي من اختيار الكلمة المتأهبة التي تمدّ المتلقي بمحمولة محسوسة من المعنى المقصود، ليجد المتلقي نفسه يتلقى حمولة أبلغ ملموسية من كلمة تالية في السياق، ثم من ثالثة ورابعة، إلى أن يراه قد استنفد الفكرة كلية واستوعبها، فيدرك عندئذ أن دوال الخطاب النوري لا تُستخدم بارتجال أو اعتبارية توصيلية، ولكنها تُستخدم بوعي عميق وتحرص على أن تجعل القارئ يتلقى من كل عناصر الخطاب اللفظية حظاً ملموساً من الإفادة، كالضيف يستشعر حرارة كل من وقف في طابور التشريفات يصفحه. "إن سر المناسبة بين الأشياء صير أكثر الأمور كالمرآيا التي تراءى في أنفسه، هذه في تلك، وتلك في هذه؛ فكما أن قطعة زجاجة تُريك صحراء واسعة، كذلك كثيراً ما تذكرك كلمة فذة خيالاً طويلاً، وتمثل نصب عينيك هيئة كلمة حكاية عجيبة ويجول بذهنك كلام في عالم المثال المثالي".^(٢)

التلوين بالتوصيف

قلنا إن التعبيرية بالنسبة للأدب هي نوع من التشكيل الخطابي يوائم العواطف وأحوال البوح الروحي والوجداني التي يعرب الإنسان من خلالها عما يسكنه من أحاسيس وأفكار ورؤى. وما نسجّه في هذا الصدد أن بديع الزمان النورسي يستخدم التلوين في خطابه بسخاء كبير؛ والتلوين الخطابي كما أسلفنا يعول على ترجيح لوازم لغوية أو متممات دلالية منها النعوت، ذلك لأن النعوت تنسجم مع طبيعة فن التشكيل. يقول النورسي رحمه الله: "إن ذكر الأوصاف الكثيرة سبب للتجسيم في الذهن والحضور في العقل والمحسوسية للخيال".^(٣)

إن النعوت هي مادة التلوين التي تتحول بها الصورة الأدبية إلى مشهد تشكيلي محسوس؛ إذ مثلما تعتمد الفرشاة هذا اللون أو ذاك للتعبير عن عاطفة من العواطف، فكذلك يصطنع الخطاب المقوم (الوصفي) من أجل أن يعين تلوينية شيء ما أو صبغته. لقد

تحدث "ياكوبسون"^(٤) عن نحوية الشعر وعن شعرية النحو، وقصد بذلك إلى طبيعة التركيب الذي تراعى فيه أحكام المعيار النحوي أو قد لا تراعى أحياناً نشداناً للخصوبة ودعمًا للشعرية.

والمهم أن النورسي مارس التوصيف بصورة لا جدال فيها، إعراباً عن وازع تلويني ازدوجت بواعثه، فهو كما أسلفنا كان من خلال التلوين يستجيب لدواعي الوجدان؛ وهو من جهة أخرى كان يعزز العدة البيداغوجية التي يجهز بها خطابه من أجل أن يضمن له الانتشار بين الجماهير، ذلك لأنه كان يفاعل بقيم روحية تجريدية اقتضت منه أن ينحو منحى التشكيل والتلوين تقريباً لمعانيه من الناس، وتعميقاً لحقيقة تلك المعاني من خلال صبغها باللون. لذا رأينا كيف لبث بديع الزمان بمد من مساحة النعوت رغبة منه في استيفاء الغاية التوصيلية. فالنعوت كانت من أهم فواعل التشكيل والتصوير في خطاب النورسي. وكما يمازج الرسام بين الألوان فيخلق الانطباع الجديد، أو كما يراوح بين الأصباغ ليعطي التعاكس المطلوب، فكذلك يصنع النورسي مع التلوينات اللغوية، إذ يخرج الصورة وقد لبست سمّتها اللونية على نحو يكفل لها أن تحاطب المتلقي بالكيفية المناسبة والأسلوب المطلوب.

ولقد رأيناها يوظف الدوال لرسم الجو الذي يحيط بالفكرة أو المتولد عنها، وهذا بواسطة تغزيه منظومة المعاني المستثمرة، بحيث يأتي ترادف العبارات وجهها من وجوه تعميق اللون. "نعم وبدون نوره تبكي الوجودات لك إعداماً، والأنوار ظلمات، والأحياء أمواتاً، واللذائذ آلاماً وآثاماً، ويصير الأوداء بل الأشياء أعداء، وما البقاء بدونه إلاّ بلاء والكمال هباء، والعمر هواء، والحياة عذاب، والعقل عقاب، وتبكي الآمال آلاماً"^(٥). فتنقية الفرشاة في رسم هذا المناخ الحدادي استخدمت دوال معبرة برز بها على الفور لون السواد الذي أراد السياق أن يعبر عنه. ومن الواضح أنه فضلاً عن المادة اللفظية التي أعربت عن طبيعة الموقف هنا، فقد استغلت الخطابة فاعلية البلاغة لاسيما الطباق: الأنوار ظلمات / الأحياء أمواتا / اللذائذ آلاما / الأوداء أعداء... فالتناسب قام على هذا التداعي الذي سلسل الدوال وجعلها تنتمي إلى عائلة ذهنية متداعية عكسا وإطرادا. فلفظ "تبكي" يناسب في الإيعاز ألفاظ إعداماً، ظلمات، أموات، آلاماً، أدواء، بلاء، هباء، عقاب... لذا كانت بمنزلة الأسرة الدلالية الواحدة. وتجميع هذه الألفاظ بهذا الشكل، أفادت منه التعبيرية وصنعت صبغتها. بل لقد تردد لفظ البكاء في مستهل الفقرة ومختتمها، وما ذلك إلاّ



ليعكس المرارة التي يحس بها الكاتب إزاء فكرة الجحود.

أنا لا شيء ومن غير شيء،
الموجودات كلها أريد...

صحيفة الوجه فهرسة للخصوصية الفارقة

حسّ التصوير يتبدى لدى النورسي في تلك الحساسية التي كان يجدها حيال صورة الماهيات والأشكال والمشاهدات، لاسيما ما يخص الإنسان.. هذا الكائن الذي عبر الخالق من خلال الهيئة التي قدّم فيها عن كمال ما أبدعت قدرته وجمال ما أنشأت إرادته.

لقد خلق الله الإنسان وجعل الوجه مجلّي لحسنه، بل إن وجه الإنسان هو فهرس العلامات التي تميز صاحبه، والزمام لما في طلّعه من سمات. ومن دلائل قدرة الله التي لا تُحدّ أن الوجه لا يمكن أن يعكس إلا ماهية صاحبه، فخطوط الوجه خريطة ربانية فارقة بين البشر رغم لامحدودية أعدادهم. والنورسي حين يدير تفكيره في مثل هذا الجانب من عظمة الخالق فليس باعته إلى ذلك هو الترف أو البحث عن الحديث المستطرف، ولكنه يفعل ذلك لأنه يمتلك الوازع الفني والتشكيلي الذي يميز الفنان؛ إذ اهتمامات الرسامين وصناع اللوحات يستغرقها تمثل الوجه، وتمييز خطوطه الواضحة والخفية، ذلك لأن الإبداعية تبرز أظهر ما تبرز في تخريج ملامح الوجه المعبر، الوجه الذي لا يمكن أن تقرأ أسطره بسهولة وسطحية. والشاهد في هذا هو ما يثيره فينا وجه "موناليزا" مثلا: "اعلم أن وجهك يتضمن من العلامات الفارقة عدد أفراد الإنسان الماضية والآتي، بل لو وجد الغير المتناهي من الأفراد لتصادف كل واحد في وجهك ما يميزك عنه، مع التوافق في أركان الوجه، كأن الوحدة تجلّت من وجهك في كثرة غير متناهية".

فالرؤية النورية تصدر هنا عن وازع تصويري تشكيلي لا يفوته أن يقرأ في صفحة الوجه آية من آيات الاختلاف المظهري التي هيأها الله لعباده، وأن يترسّم فيها مظهرا من مظاهر الإعجاز الدال على مُطلقية إبداعية الله، بل إن الخطاب الذي عاجل به النورسي هذه المسألة قد استرشد مادّته التشبيهية من قاموس فن الزخرفة والنقش: "كأن الوحدة تجلّت من وجهك في كثرة غير متناهية"^(٧)، بل إن هناك من العبارات ما يحيل إلى الحقل التشكيلي ويوعز بمفرداته كقوله: "وجهك يتضمن من العلامات الفارقة"، فمثل هذا التعبير (العلامات الفارقة) مما يدور على ألسنة الرقّامين والنقّاشين والسيمايين.

ولقد استرسلت الإشارات إلى الوجه في نصوص النورسي،

إن تمادي الكاتب في تتمير المقومات البلاغية على هذا النحو يؤكد رغبته في استيفاء التلوين، فاستغلال الاستطراد ومرادفة المعاني. ثم إن الوتيرة النحوية المتراسلة رفعا ونصبا "الموجوداتُ إعدادًا / الأنوارُ ظلمات / الأحياء أمواتا / اللذائذُ آلاما وآثاما..."، قد أضفت على السياق مستوى تمدت به نبرة الأسى على حال واحدة. كما استغلّت الفرشاة جانب التجانس الصوتي تصويريا لجنائزية المشهد: هباء.. هواء / عذاب... عقاب / آلام.. آمال.. إلخ.. وهو ما استكمل به المشهد دُكتته.

تمازج المشاعر واللغات في حسه

في قصيدة "بكاء القلب"^(٨) يكشف النورسي عن جانب مهم يخص الإبداعية والوجدان الفني الذي كان ينفذ به أعماله؛ إذ استخدمه اللغة العربية - في الكتابة والخطاب - لا يحول بينه وبين الإعراب بأصالة عن مشاعره، فلم يكن الخطاب بالعربية - على ما يبدو - يشوّس على خلوص تلك المشاعر، ولم يكن يغيّر منها أو يُزوّر، فأحاسيسه التي ظلت اللغة الأم تتمرّس بها، كان يجدها هي هي حين ينقلب إلى التعبير بواسطة اللغة العربية.

ولا شك أن قارئ هذا النص النظمي سيستشعر الخصوصية الأسلوبية التي ميزت بناءه، فكأنها في بعض مواطنها نص مترجم، وما ذلك إلا لأنّ النورسي كان وهو يكتب يجد نفسه موزّع القدرة الخطائية بين أكثر من لسان، ولم يكن ذلك ليعوقه، بل لقد كان يمضي في الإنشاء، لأنه طوّع الأسلوب العربي لدرجة الارتجال، وبات يصوغ به مشاعره دونما تكلف أو تصنع. فلذلك نلمس أحيانا في النص تلقائية كتلقائية الأطفال، وتلك ميزة للنص وليست عليه؛ لأن الشعر الجميل ظل دائما يصطنع عيون الأطفال وأحاسيسهم ويصدر عن بكاره خواطرهم كلما أراد الشاعر أن يأتي بالعذب والمدهش والفذ: "اعلم أن قلبي قد يبكي في أنيناته العربية بكاء تركيّا بتهييج المحيط الحزين التركي، فأكتب كما بكيت:

لا أريد، من كان زائلا لا أريد،

أنا فان، من كان فانيا لا أريد،

أنا عاجز، من كان عاجزا لا أريد،

سلّمت روعي للرحمن سواه لا أريد،

بل أريد، حبيبا باقيا أريد،

أنا ذرّة، شمسا سرمدًا أريد



هكذا يفكك النورسي ظاهرة الزمن - باعتبار أن الزمن هو فاعلية الحياة الأساس - من خلال تمثيلها في سياق حي من العلاقات والأحداث المشخصة (الحياة - وجه - أنا - المحيي - نتيجة... إلخ). ليضع أماننا مستويات لا تحصى من الزمنية؛ الزمن الأرضي (لحظة واحدة من الحياة)، الزمن القدسي (الزمن الطويل)، فيما تضمن قوله "إن لها ألفا من النتائج" سلاسل أخرى من الزمنية التي يقتضيها منطق الأشياء والعوالم وفق مواقعها وظروفها. فزمنية الصورة غير زمنية المرابط على ظهر سفينة بكوكب الزهرة. ذاك وجه من الأوجه التي تمثل فيها النورسي فاعلية الزمن وكتافتها وما تمثله الحياة بالنسبة لسيولة الأبدية؛ إذ الحياة ليست إلا لحظة عابرة وإن بدت للآدمي طويلة، إذ الأمور نسبية والخالق سبحانه وتعالى هو مصدر هذه السيولة التي لا نعلم لها منطلقا ولا منتهى على التحديد.

الضوء والمعان

يمكن رد الخلفية التصويرية التي يصدر عنها النورسي والمرتبطة بمجال الضوء والتألق والمعان والترقراق التي تشيع في مخاطباته إلى الأماكن والبيئات التي أقام فيها؛ لا سيما خلال تلك السنوات التي عاشها متطلعا إلى الانعتاق والحرية في محبسه بقرية "بارلا" يُصَبِّحُ بِحَيْرَتِهَا الْعَجِيبَةِ وَيُؤَسِّسُهَا. إذ لا بد أن تكون تلك البحيرة التي أشبهت في هيئتها ومنظرها الصفحة المترامية أو المرآة الكبيرة المستقطبة لتوهجات الكواكب، قد تركت أثرها في صنع ذلك الإدراك اللماع الذي تعكسه صور النورسي وتشكيلاته التي طفحت بها نصوص الرسائل: "رमित حجرا في وسط حوض كبير تقول للدائرة المتشكلة من وقوع الحجر: واسعة.. واسعة.. واسعة.."

فمداومة النظر إلى تلك المرآة الصقيلة الممتدة كأما البحر، لا بد وأن يكون قد نقش في مواجد النورسي تلك الألفة التي جعلت مشاهد الصقالة والإمضاض والتوهج تلازم مخياله وتبطن كثيرا من مشاهدته ورسوماته النصية، بل لقد ظلت صورة اللمعة والرشحة والقطرة والمرآة وغيرها من المواد المتجانسة مع أشياء هذا الحقل الشفيف دوال تدور وصورا تترجع في متن الرسائل.

فالخطاب ينقل إلينا مشاعر الكاتب من خلال الإيماءات المتلونة والإشارات التي تنعكس عليها آثار الأضواء والانتعاعات المنبعثة من المجال من حوله، بل والنابعة من داخل روحه؛ إذ إن

إذ رأى النورسي في الوجه مجالا دالا على الوحدانية، وكل ذلك لأن النورسي فتان تشده المساحات ومواطن التعبير سواء في صورة الإنسان أو في ملكوت الله: "فسبحان من أدرج وكتب الغير المتناهي في صحيفة الوجه، بحيث يُقرأ بالبصر ولا يحاط بالعقل. نعم يقرأ بالنظر واضحا مفصلاً ولا يُرى بالنظر إجماله، بل ولا بالعقل أيضاً. فهو المعلوم المُبصر، المجهول المطلق، والمشهود الغائب. فمحال بمراتب أن يكون هذا التحالف المنتظم المفيد في نوع الإنسان، والتوافق المطرد المتناظر في أنواع أمثال الخنطة والعنب، وكذا النحل والنمل والسَّمك، بالتصادف الأعمى والاتفاقية العوراء.. كلاً ثم كلاً، إنه لصنعاً سميع، بصير، عليم، حكيم".^(٩)

الجمال التجريدي

"ومن آيات حسنه أن.. زَيْنَ قلوب العارفين بأنوار جماله المجرّد"^(٩). إن مثل هذه التعبيرية التي تدور في مخاطبات أهل الفن والمجيلة على عالم التشكيل لا تفتأ تواجها في سائر رسائل النورسي، فهو مثلا حين يتحدث عن الإنسان باعتباره مُجَسَّم الصنعة الإلهية يقول: "اعلم أنك صنعة شعورية بحكمة، حتى كأنك بوضوح الدلالة على صفات الصانع مجسم الحكمة النقاشة، ومتجسد العلم المختار.. وصورة القدر المرسم الخبير بما يناسب بناءك".^(١٠)

الوجود كتابة لا تمحي

الفكر الديالكتيكي ساهم في طبع ملكة النورسي بطابع الثراء بحيث تأتت لهذه الملكة أن تكون على دينامية تمثلية زاخرة، ترى في الصورة الواحدة إمكانات من الصور لا تحد. بل لقد تأسس يقينه الإيماني على رؤية وجودية بقائية نابعة من فهم يُعمق ظاهرة النماء التي تطبع الكائنات العضوية وتجعل حياتها ديمومة مستمرة تتحول ولا تفتنى: "إن وجود كل ذي حياة هو بمثابة كلمة، تقال ثم تكتب ثم تغيب، دون أن تبيد".^(١١)

إنه بهذه الروح التي تنفذ إلى ما وراء الحس والسطح، قد أدرك أن الكون كما هو منوط بضمان وكفالة حياة المخلوقات، هو أيضا منوط ومتكفل بواجبات أخرى لا نلمسها يؤديها لخالقه تسيحا وحما ومباركة وتعظيما: "شاهدتُ أنه إن كان للحياة وجه واحد متوجه إلى "أنا"، فإن لها مائة وجه متوجه إلى الحي المحيي، وإن كانت لها نتيجة واحدة تعود إلي أنا، فإن لها ألفا من النتائج تعود إلى خالقي، لذا فإن لحظة واحدة من الحياة أو أنا من الوقت ضمن هذه الجهة كاف جدا، فلا حاجة إلى زمان طويل".^(١٢)



فلقد أدرك النورسي مدى خيبة الأمة بمراصيد لا تحصى من النصوص البكماء العمياء ظلت تتعاطاها عبر المراحل والعهود من غير ما جدوى ولا نفع في تغيير ما بحال الناس من أذى وحطة.. نصوص كانت على مستوى من العقم بحيث لم تفلح في تحريك القلوب ولا في هز الضمائر وإطلاق العزائم من عقالها.

لذا كان من الطبيعي أن يسلمح النورسي أعماله ليس ببلاغة تورث النعاس وتثير في النفس شهوة الاصطلاء، ولكنها بلاغة نفاذة ذات تأثير سحري، وقدرة تفعيل جذري... بلاغة لا يتعذر عليها اقتحام الأبواب الموصدة وفتح مغاليق القلوب الغلف. لقد كانت الرسائل فرق إغاثة ووحدات ميدان تبث الوعي الخالص بين الأوساط وتنشر الفكر المحيي بين الناس، وتبذل التعزية والأمل للمغبونين بكل حرارة ومصداقية وإنسانية.

الجيز والصوت

من الدقائق التي يلتفت إليها النورسي حقيقة الصوت؛ إذ الصوت مادة، لكنها بغير جسم بدليل أنها تنفذ إلى الفراغات على اختلاف حجومها. فعلاقة الصوت بالفضاء علاقة تناسب، إذ الصوت ينفذ في الكهف نفاذه في أذنين بعوضة لا تكاد ترى بالعين. ونفس الشيء بالنسبة لألفاظ القرآن، فهي تلائم الأحواف والقوالب بمقاساتها المختلفة: "كما أن لفظة قرآنية مثل "الحمد لله" عندما تتلى تملأ الكهف الذي هو بمثابة أذن الجبل، فإنها تملأ في الوقت نفسه ما تشبه الأذنين الصغيرة جدا لبعوض، فتستقر اللفظة نفسها فيهما معا".^(١٤)

تواصله مع عوالم الملكوت بصورة اعتكافية يجعل الروح على التماع دائم واحترق مستمر لأنها تستضيء بنور التسايح، وكل ذلك يغدو مشاعر تتلبس عبارات وأقوالاً وتشكيلات خطائية تصطنع جمالياتها بذاتها النصية وبروحها المعنوية معا.

فبدل أن يقرر النورسي أن بحيرة "بارلا" مثلا كانت مسرح تأملاته، وأن الشمس كانت تنفدح على صفحاتها الزرقاء فيتألاً المنظر بلون الذهب... بدل ذلك يتحول الخطاب ذاته إلى مشهد وشاشة تشع أشياءه (أي كلماته)، تشد عينيك وتوجه بصرك لتتوقف عند العالم المشرقة التي يُجلبها لك نظر الكاتب، فيجعلك تعين التألق النوراني والتكسر الضوئي فوق سطح النص، وكأنك أمام بساط من زجاج أو من فسيفساء. ذلك لأن اهتمام الكاتب يتركز على لفتنا إلى الحال التأثرية التي يعيشها هو ونعي بها مظهر التفرق الضوئي والتألق والصقالة الطافحة.

وسنجد هذه الحسية تطغى أكثر على نصوص بعض الأجزاء من الرسائل مثل "اللمعات"، بحيث طفت الحسية والضوء والنعومة على جسد النص. كما أن دوال اللمعان والإنارة والترقراق قد جاءت عناوين وأسماء لفصول، أو أحالت على تفرجات نصوصية في رسائل كثيرة. ويمكننا أن نرى في تغلغل صورة المرأة في وجدان النورسي على هذا النحو إعراباً منه عما لنفسه من شفافية، ومن روح مرآتية تنظر إلى ما وراء الأشياء وتستقبل انعكاسات الحقائق التي لا تلتقطها عيون الآخرين.

اسم النور

إطلاقه اسم رسائل النور على إبداعاته يوحي بمنزوع تمثلي قائم على المطابقة بين الدال والمدلول، فالمعاني عنده حقائق لا مجازات. من هذا المنطلق نقول إن كلا من مضمون الرسائل وشكلها نورانيان بحكم منطق تماهي الشكل في جنس مضمونه؛ لذا كان النورسي لا يرى في متون الرسائل مجرد حروف وكلمات ونصوص خطائية تلفظها الألسنة، إنما أحزمة من نور ومشاعل متقدة، وشُهباً متوهجة، وقناديل تضيء بدهن زيتونة لا شرقية ولا غربية.

ليست المخاطبات في ديوان الرسائل أقوالاً صمّاء تستغلق عن الفهم، فهي رسوم وصور وتشكيلات تأخذ بيد السامع والقارئ بكامل الأدب، وتسير به ملء الأنس وتنتهي به إلى مجلسه من الحلقة النورية، وتشف عن أحوال وأفعال ووقائع محسوسة تفاعل القلب والعقل والكيان.

(١٤) جامعة وهران / الجزائر.

الهوامش

- (١) إشارات الإعجاز لسعيد النورسي، ص ٧٣.
- (٢) إشارات الإعجاز لسعيد النورسي، ص ٦٩.
- (٣) إشارات الإعجاز لسعيد النورسي، ص ٦٩.
- (٤) من أبرز الشكلايين، له نظريات في الشعرية وتحليل الخطاب.
- (٥) المثنوي العربي النوري لسعيد النورسي، ص ٢١٠.
- (٦) المثنوي العربي النوري لسعيد النورسي، ص ٢٨٥.
- (٧) المثنوي العربي النوري لسعيد النورسي، ص ٢٩٨.
- (٨) المثنوي العربي النوري لسعيد النورسي، ص ٢٩٨.
- (٩) المثنوي العربي النوري لسعيد النورسي، ص ٢٩٣.
- (١٠) المثنوي العربي النوري لسعيد النورسي، ص ٢٩٩.
- (١١) الشعاعات لسعيد النورسي، ت: إحسان قاسم الصلحي، ص ٨٠.
- (١٢) الشعاعات، لسعيد النورسي، ص ٨١.
- (١٣) المثنوي العربي النوري، لسعيد النورسي، ص ١٣٩.
- (١٤) الكلمات، لسعيد النورسي، ص ٤٥٠.



البيئة في القرآن الكريم

د. إبراهيم أوزدمير*

علاوة على التلوث الاجتماعي في البيئة كالفقر والجوع والمهجرة والقهر والقمع والأطفال المشردين في الشوارع وإدمان المخدرات وغيرها من القضايا. وعندما يُنظر إلى أساس تلك المشاكل، يظهر أن غالبيتها العظمى ذات مصدر إنساني. ولهذا يربط كثير من المسلمين قوله تعالى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ (الروم: ٤١) بقضايا البيئة، إذ من المعلوم أن أكثر ما يفسد التوازن في الطبيعة هو الاستهلاك الزائد والإسراف وهدر المصادر الطبيعية بشكل مفرغ.

النظرة القرآنية نحو البيئة

لقد غيّر القرآن على مدى ثلاثة وعشرين عاماً -وهي الفترة التي تنزل فيها- نظرة مخاطبيه نحو العالم، وشكّل فكرًا كونيًا

مشكلة البيئة من أهم القضايا التي يواجهها الإنسان في العصر الحديث، فهذه المشكلة لا تهدد الإنسان فحسب، بل تهدد حق الأجيال القادمة في عيشهم ضمن مناخ صحي. وبصفتها تلك تظهر أمامنا كقضية عالمية. والإنسان المعاصر الذي شهد اكتشافات مذهلة في مجال العلم والتكنولوجيا لم يستطع التعامل مع الطبيعة بشكل متوازن.

ونعني بـ"البيئة" كل الظروف الطبيعية التي نعيش فيها مع الكائنات الأخرى. فكما أن منزل الإنسان وحديقته والهواء الذي يستنشقه والماء الذي يشربه والمدينة التي يعيش فيها والناس الذين يعيش معهم تشكل جزء من بيئته؛ فإن الغابات والجبال والأنهار والبحار التي يشترك فيها الناس هي الأخرى جزء من بيئته. ونعني بقضايا البيئة فساد المناخ في عالم الطبيعة الذي يحيط بنا، وانقراض أنواع الحيوانات، والاستهلاك الزائد، وتلوث الطبيعة،



جديداً أساسه التوحيد. فالطبيعة التي كانت بالنسبة للناس، تبدو كشيء مهمل بلا فائدة، قد عرفها القرآن من حديد بأنها آية من آيات الله، وبالتالي فإن أحد الشروط الواجبة للوصول إلى الإيمان الحقيقي هو التأمل والتفكير في الطبيعة كشاهد لنعمة الله على الإنسان.

إن أول أمر في القرآن هو "اقرأ". وليس المقصود من هذا الأمر قراءة نص مكتوب أو شيء محفوظ فحسب، بل هي قراءة من شتى النواحي؛ فالعالم الذي كان -حسب التصور الجاهلي- بلا روح ومعنى، اكتسب بهذه القراءة مفهوماً جديداً، وهو أنه يذكر الله ويسبحه. فكل الذرات التي في هذا الكون الفسيح تتوجه إلى الله بمشاعر العبودية وتنزهه عن كل نقص كأنها قلب واحد مرصود لذكر الله. فالله تعالى يعرفنا بنفسه، ويجعلنا نشعر بوجوده مع كل شيء في هذا العالم، وكل ما في الوجود هو انعكاس لقدرته وعلمه وجلاله وجماله.

عناصر البيئة في القرآن

أ - خلق الكون

أول برهان يربط القرآن بالكون هو حقيقة أنه خلق من عدم: ﴿بَدِيعَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةً وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (الأنعام: ١٠١)، إلا أن هذا الخلق لم يكن بالصدفة، بل بعلم الخالق وقدرته وإرادته. ومفهوم الخلق هو أحد المفاهيم الأساسية في التصور الإسلامي.

وقوله تعالى: ﴿الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ * وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ * وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ * أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ﴾ (الرحمن: ٥-٨) يشد الانتباه إلى التوازن الموجود في الطبيعة، ويعلن أن الحفاظ على التوازن من القواعد الكونية التي يجب علينا مراعاتها.

وعندما يتحدث القرآن عن الكون يعلن أنه مسلم ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ (آل عمران: ٨٣). بمعنى أن كل الوجود أسلم لإرادة الله بشكل مطلق. فكل الوجود الذي نسميه الطبيعة، كأنه جنود تسمع وتطيع، وتنفذ واجباتها الفطرية؛ أما المتوقع من المسلم، فهو التسليم بإرادته الحرة للإرادة الألهية في جو من التوافق والتناغم مع الكون.

ب - الماء كمصدر للحياة

يؤكد القرآن على أن الماء مصدر الحياة ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ (الأنبياء: ٣٠). والمطر ينزل من السماء بقياس وقدر معلوم، يقول تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ﴾ (المؤمنون: ١٨)، والماء الذي هو أهم ضرورات الإنسان الحياتية منذ أن كان طيناً، نعمة في حد ذاته، كما أنه سبب ظهور كثير من النعم.

ج - البحار والمحيطات

إن الله تعالى يقول: ﴿هُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاحِرَ فِيهِ وَتَلْتَبِعُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (البحر: ١٤). وبينها الله إلى الفائدة التي تحققها البحار للإنسان: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ (الإسراء: ٦٦).

د - السحب والمطر

عندما طلب أهل مكة من الرسول ﷺ المعجزات نزلت آية ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَع النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَّاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ (البقرة: ١٦٤). وهذا يعني أن أكبر معجزات الله وأدومها هي العالم الذي حولنا ويحيط بنا، إذ يوجد فيه دلائل لا حصر لها على وجود الله ووحدانيته ومن ضمنها المطر، قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقْلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ (الأعراف: ٥٧).

والقرآن عند الحديث عن المطر يوجه النظر إلى الكائنات بروية كلية ويصور العالم كأنه منزل: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ فَرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (البقرة: ٢٢). فالأرض التي هي جزء من هذا الكون تم تمهيدها للإنسان وأقيمت وفق نظام معين، وتم تزويد الأرض بالماء لتنمو الكائنات الحية وتعيش.



هـ- الرد والبرق

ما تحويه بعين جديدة باصرار واطراد كإشارات على وجوده سبحانه وتعالى.

وحينما يوبخ الله تعالى الكافرين يقول: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمَلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾﴾ (يس: ٧١-٧٣).

والواقع أن الشيء الذي يريده المولى تعالى في مقابل إنعامه على الإنسان بتلك الحيوانات ما هو إلا شيء بسيط يستطيع أي إنسان أن يقوم به. وذلك بأن يذكره جل وعلا ويشكره ويقول: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ﴾ (الزحرف: ١٢-١٣). ويلفت القرآن النظر إلى الخيل أيضا فهي مخلوقات أصلية وهامة حيث يقسم بها المولى عز وجل: ﴿وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا ﴿١﴾ فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا ﴿٢﴾ فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا ﴿٣﴾ فَأَأْتِرْنَ بِهِ نَقْعًا ﴿٤﴾ فَوْسَطْنَ بِهِ جَمْعًا﴾ (العاديات: ١-٥).

وفي سياق قصة سيدنا سليمان يشير إلى وجود تواصل بين النمل والإنسان وبين النمل وبعضه البعض؛ فإنه عليه السلام كان يتقدم بجيشه من الجن والإنس والطير، وكان النمل يتجه نحو واد به حشد كبير من النمل على رأسه نملة، فقالت بلغة مقبولة ومتداولة فيما بينها من خلال تواصل وتخابر خاص: ﴿يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطَمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ (النمل: ١٨). ففهم سيدنا سليمان ما قالته النملة، وتبسم وشكر ربه على تلك النعمة التي أنعم بها عليه حيث علمه لغة الحيوانات.

والقرآن الكريم قد ذكر في كثير من الآيات الطيور أيضا؛ إنه يتعجب من أولئك الذين يطلبون من النبي إثبات وجود الله تعالى، فيتساءل: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَفَاتٍ وَيَقْبِضْنَ ﴿١﴾ ثُمَّ يَمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ ﴿٢﴾﴾ (الملك: ١٩).

المخلوقات أمانة الله لدى الإنسان

فأساس مفهوم الطبيعة الذي بيّنه القرآن، يعتمد على أن جميع الكائنات (الحية وغير الحية) بما فيها الإنسان مخلوقة لله سبحانه؛ فالإنسان والطبيعة بهذا المفهوم ليسا عنصرين منفصلين أو غريبين عن بعضهما البعض، بل هما أمة خلقت من قبل الخالق نفسه.

الرد والبرق والصواعق -من منظور قرآني- مخلوقة لله، تذكره وتُسبِّحُه؛ فالقرآن الكريم قرأها بالملائكة ﴿وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ حِيفَتِهِ﴾ (الرعد: ١٣). فهذا الرد الذي يكون مع البرق ويُسمع بعده مدويا في الفضاء كأنما ينزع القلوب من مكائها.. وهذا الانشقاق والصوت الرهيب المتجاوب من أفق إلى أفق آخر يسبح الله ويعظمه معلنا نعمته ورحمته وعظمته وكبرياءه.

و- الجبال

إن الذي خلق الكائنات وخلق السماوات بغير عمد هو الذي خلق الجبال أيضا وأرساها على الأرض لئلا يتضرر الإنسان ﴿وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا﴾ (الرعد: ٣). وأيضا فالجبال كانت تسبح الله مع داود عليه السلام: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلًا يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلْنَا لَهُ الْحَدِيدَ﴾ (سبا: ١٠). فكأنه يصل أثناء التسييح إلى درجة القرب إلى الله والبعد عن نفسه حتى إن كل الحجب التي بينه وبين الكون تزول، وتستكمل خواصه بخصائص الكون وتتحذ تسبيحاته بتسبيحاته، ونتيجة هذا تردّد الطيور والجبال تسابحه.

ز- الأنعام:

وينبه القرآن الكريم إلى أن الحيوانات هي أجزاء هامة في المنظومة الكونية المتكاملة، وأما أمم أمثالنا ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ (الأنعام: ٣٨). أي إن الحيوانات مثل الإنسان؛ خلقت في بادئ أمرها من تراب، وأخذت مظهر الحياة، وتم تحديد أرزاقها وآجالها، حسب تقدير معين، وهي تعيش مجتمعة مثلكم، وتتقارب أو تتباعد من بعضها البعض وفق قوانين حاكمة ونظم خاصة في دائرة التقدير الإلهي، وهي في خصائصها المرئية والخفية تعد أمما أمثالكم.

والقرآن الكريم يريد من العرب وهم أول المخاطبين أن ينظروا بدقة وتفحص إلى الإبل التي عرفوها جيدا وهي جزء لا ينفصل عن حياتهم اليومية، فيقول: ﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ (الغاشية: ١٨).

والمخاطبون بالقرآن الكريم كانوا يرون بكل تأكيد إبلهم، ولكن القرآن الكريم يدعو الإنسان إلى أن ينظر إلى الطبيعة وكل



ويجب على الإنسان أن يتعامل مع الطبيعة والمخلوقات التي فيها بالمسؤولية وعدم الإسراف.

وقد قام إسماعيل ر. فاروق بتلخيص جميل لمحاور علاقة الإنسان بالطبيعة كالتالي:

- إن الطبيعة ليست ملكاً للإنسان، وإنما هي ملك لله تعالى.
- إن الطبيعة مستحرة للإنسان ويمكنه أن يتصرف فيها، ولكن من خلال قواعد واضحة.
- لا بد للإنسان أن يتصرف مع الطبيعة بصورة أخلاقية لدى استفادته منها واستخدامه لها.
- على الإنسان أن يبحث في العلوم الطبيعية والنظام العام لها ويحاول فهم القوانين الدقيقة الرائعة المودعة فيها.

والسبب في كل هذا هو أن "الأمانة" (خلافة الله في الأرض) عرضت على السماوات والأرض والجبال ﴿فَأَتَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ (الأحزاب: ٧٢). وإفساد التوازن البيئي جريمة تتناقض مع مفهوم خلافة تُفسد وتدمر نظام الطبيعة، لأن الخليفة يعني الوكيل، والوكيل لا يجوز له أن يخون أمانة الموكل الذي قام بخلق نظام متكامل لهذا العالم وجعله يمثل هذا التناغم والتناسق. والذي يقوم بتخريب وإفساد هذا النظام والتناغم لا شك أنه وكييل سيء.

فالإنسان له حق الاستفادة من الطبيعة، ولكن لا يعني ذلك استخدامها بصورة غير لائقة. وعليه أن لا ينسى أنه -بمقتضى الأمانة التي يحملها- مسؤول عما يفعله وأنه سيحاسب يوماً ما على ما اقترفه تجاه غيره من كل المخلوقات ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴿٧﴾ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ (الزلزلة: ٧-٨). كما أن رسولنا الكريم قد نبه إلى ذلك بقوله: "التؤدّن الحقوق إلى أهلها يوم القيامة حتى يقاد للشاة الجلحاء من الشاة القرناء." (رواه مسلم).

إسراف مصادر الطبيعة إثم

ومن هذه الزاوية فإنه يتضح أن الله تعالى هو الذي قدر النعم كلها وأن الشكر عليها هي مسؤولية أخلاقية. والقرآن الكريم يلوم الذين لا يرون نعم الله كآي من آياته، ولا يتفكرون فيها أو لا يعتبرون بها، وفي النهاية يكفرون بنعم الله بدلا من أن يشكروها.

إن الإسراف ليس مجرد هدر للمصادر فحسب، بل هو في

الوقت ذاته عدم احترام للخالق سبحانه والذي هو صاحب كل هذه النعم وخالقها. والإسراف لا يؤثر علينا فحسب، بل على الأجيال القادمة أيضا. وقول الله تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ (القدر: ٤٩) ينبه إلى أن على الإنسان الحفاظ على هذا الـ"قدر" وعدم الإحلال به.

فجميع الكائنات مخلوقة لله تعالى؛ فالله تعالى هو الذي زين السماوات بالشمس والقمر والنجوم، وزين الأرض بمختلف الأزهار والأشجار والحدائق وغيرها، وهو الذي يجري الماء على الأرض ويمسك السماء بغير عمد وينزل الغيث، وهو الذي أوجد النباتات والحيوانات أزواجا وحقق لها التكاثر، وفوق كل ذلك هو الذي خلق بني الإنسان.

إن الطبيعة ملك للمولى عز وجل، ونحن أمناء وخلفاء لله على وجه الأرض، ولسنا مالكين لها حتى نتصرف فيها بما نشاء وبدون ضوابط.. وكل شيء فيها هو آية على وجوده تعالى.

وعلى حين نبينها القرآن الكريم باستمرار إلى ذاك البعد الرباني للطبيعة، فإنه يعود ويؤكد على أن الإنسان الذي هو خليفة ومسؤول عن كل أعماله الحسنة منها والسيئة سوف يحاسب يوم القيامة عن كل تصرفاته حيال هذه الأمانة.

إن يوم الدين لن يكون للحساب على العلاقة بين الإنسان والإنسان وبين الإنسان والمجتمع وحسب؛ بل وعلى العلاقة بين الإنسان والطبيعة أيضا.

وخلاصة القول: إن المسلم الحقيقي يهتم بحماية البيئة وحيها وكل ما بها من أحياء، لأنها ملك الله؛ فهو الذي خلقها وهو الذي ائتمنا عليها. إنه التزام واهتمام أخلاقي أكثر من كونه التزاما قانونيا.

وأما الحيوانات الموجودة في هذا العالم فهي أمم مثلنا. وكل ما في هذا العالم يسبح الله بلسانه الخاص به، ويتحرك نحو تنفيذ أوامر الله تعالى.

وقوانين الطبيعة ما هي إلا تنفيذ لأوامر الله تعالى. إن الإنسان بصفته خليفة الله له الحق في أن يستفيد من الطبيعة بشرط خضوعه لله تعالى، وطالما خضع لله، خضعت له المخلوقات. ■

(٥) كلية الإلهيات، أنقرة / تركيا، والمقال مترجم من اللغة التركية.



إن ميلاد فخر الكائنات ميلاد للإنسانية كافة.
فقبل تشريره كانت الدنيا في مآتم عام. وبفضله تميز
النور عن الظلام، وتحول الكون إلى كتاب يقرأ،
فكان كل شيء قد بعث من جديد.

أنا لسان عبد الله

أ.د. عرفان يلماز *



الأطباء الحذاق التوصل إلى تشخيص بعض الأمراض عن طريق لوني؛ فمن أشهر تلك الأعراض أن لوني يكون أبيض في الحميات، وبنيًا غامقًا في حمى التيفوئيد، وأسود في الفطريات، ويكون سطحي أملس (غير حش) عند نقص الحديد وفقر الدم ونقص الحامض النيكوتيني الذي هو من فئة الفيتامينات "ب".

مهامي ووظائفي

وإن سألت عن وظيفتي الرئيسية التي تتبادر إلى الأذهان فيمكن الجواب بأنني آلة النطق الذي هو الميزة التي تميزك وأبناء جنسك من بني الإنسان عن سائر أصناف الحيوانات، غير أن القدرة على النطق ليس منوطاً بي وحدي؛ فقبل كل شيء، إن المخ المتحكم في كل الجوارح ينظم كل حركاتي أثناء الكلام، لأنه هو المنسق لي ولكل الأعضاء. ويساعدني في تمكينك على الكلام أسنانك وشفتك وبالأخص الأوتار الصوتية التي في حنجرتك، ورتنك التي هي بمثابة مضخة هواء. فقد لاحظت كيف أن أعضاء كثيرة تتعاون فيما بينها لتمكين أنت من الكلام.

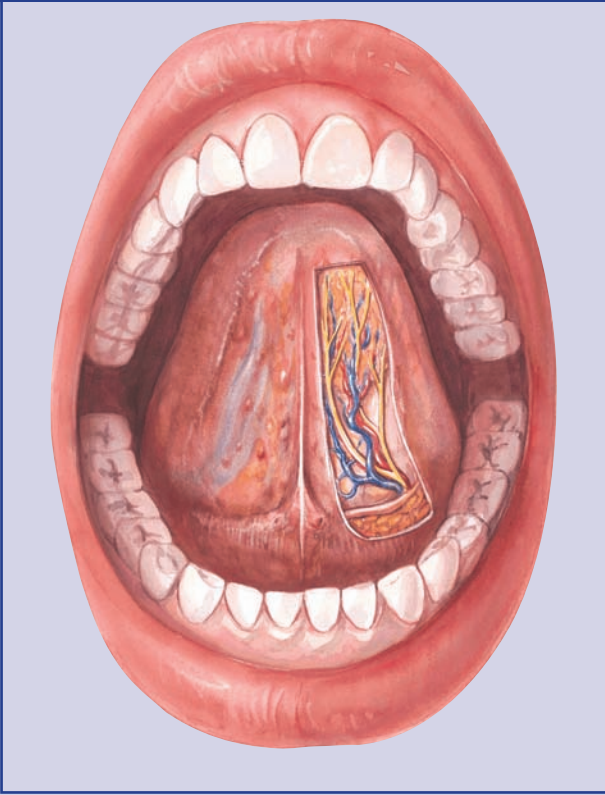
ولي مهمة ثانية وهي أن أقوم بدور البواب والمشرف

عزيزي عبد الله! لقد كنت دائماً أتحدث باسمك، وأقوم بإبلاغ الآخرين مطالبك وأفراحك وأحزانك واستبشارك واستيائك، وأقوم بدور الترجمان لما يدور في خلدك من الأحاسيس، ويعلّقُ بذهنك من الأفكار. وسمح لي أن أتحدث هذه المرة عن نفسي، وحذار أن يتبادر إلى ذهنك أي قد حسدت إخواني الآخرين من الأعضاء والجوارح، بل على العكس؛ فنحن لا نتحاسد فيما بيننا، بل يقوم كل منا بمساعدة الضعيف منا ويؤدي واجبه الذي أناطه الله به في تساند وتعاون تامين، فليس لأحد منا فضل على الآخر. ونحن نقوم بأداء واجباتنا ووظائفنا حسب ما أمرنا به ربنا.

فكل منا قد خلق على هيئة وذا خصوصيات ومزايا توافق ووظائفه، فمن غير المعقول الحديث عن فضل أحد منا على الآخر أو انتقاصه، فلن ترى فينا أحدا خلق عبثاً. غاية ما في الأمر أني أردت أن أظهر لك أني لا أقلل من أهمية الجوارح الأخرى، بل قصدي هو أن أبعثك على التفكير المشفوع بأحاسيس الشكر.

وقد يتصورني البعض وكأنني قطعة لحم غليظة لا أستقر في مكاني، والحال أني لست قطعة لحم عادي بتاتاً، فقد يستطيع





لأساعدك على تذوق طعوم ما لا يحصى من أنواع الفواكه والأطعمة اللذيذة، وبفضل ذلك تكون على علم ودراية بكل ما تتناوله من المأكولات النباتية أو الحيوانية. ولولا لي لمت من جراء كثير من النباتات السامة التي تتناولها لإشباع بطنك وسد جوعتك، وإني بمجرد ما أُلْمِسُ كثيراً من المواد المرّة الكريهة الطعم أعرف في الوقت نفسه أنها سامة ومضرة، وأنبهك فوراً إلى أن تُمَجِّحها؛ وبالمقابل إنك حينما تتناول الأطعمة الحلوة اللذيذة أكون وسيلة لتذكر ربك صاحب القدرة اللاهائية وتشكره على إنعامه عليك. يمثل هذه النعم، ولكن نهمي وشغفي لهذه الدرجة بالطعم اللذيذ هو ابتلاء وامتحان لك. فعليك أن تكون حذراً وتضبط نفسك، فالخالق جل وعلا ربط هذا الجانب مني بنفسك ليكون بمثابة سُلّم لك نحو المعالي، ولكن إذا وقعت في فخ النفس وأسأت استخدام قابلية التذوق وتلذذ الطعم المودعة في كَأَن تَأْكُل وتشرّب كثيراً إلى حد الإضرار بجسمك، فأنت ستتحمل مغبة ذلك وتدفع ثمنه. فإني بمقتضى مهمتي المنوطة بي أتذوق كل شيء، وأما الانضباط واستعمال الإرادة وعدم الرضوخ لمطالب النفس فهو من مهامك أنت؛ فقد تأكل من الحلوى (البَقْلَاوة) شريحة واحدة أو عشر شرائح، وفي كل مرة فأنا لن أستطيع منعك من ذلك لأن عملي هو استذواق الطعوم ولا شيء غير ذلك، فإياك أن تلومني على ذلك.

فأي خطأ وإهمال ييدر مني قد يؤدي إلى أن تعصني أسنانك وبالتالي أسبب لك الألم.

تركيبتي العجيبة

ولا بد لأدائي لهذا الكمّ من الواجبات والوظائف من بنية تتمتع بتركيبية دقيقة مؤلفة من أنسجة وخلايا فائقة الدقة. وفعلاً إن ربنا الذي لا يخلق شيئاً عبثاً جهاز لكل مهمة ما يناسبها من الأجهزة الخارقة من حيث جمال الصنعة ودقتها.

وهيكلي الأصلي يتألف من سبع عشرة عضلة متشعبة وممتدة إلى شتى الجهات، وثمان عضلات منها مزدوجة يتخللها نسيج دهني وكمية من الغدد اللعابية.

وأستطيع تغيير حجمي وشكلي ووضعني أكثر بكثير من الأعضاء الأخرى؛ فأنا أكثر الأعضاء المودعة فيك مرونة وقابلية على الحركة وتغيير الشكل. ولكي أستطيع التحرك بحرية تامة نحو كل الجهات غطّي هذا الكمّ من العضلات بغشاء مخاطي.

وتوجد على سطحي وجواني تنوعات تسمى "الحليّمات". وهذه الحليّمات لها أشكال متعددة، وتحتوي على براعم التذوق

ولي مهمة أخرى لا يعلمها كثير من الناس وهي أني يتحرك داخل الفم أبعث على تولد ضغط سالب (-)، وقد تتساءل: "ماذا يُجدي هذا الضغط السالب؟" إن هذا النوع من الضغط لا بد منه ليتمكن الأطفال الرُّضّع من ارتضاع أنداء أمهاتهم، فأنا بذلك أسهّل عليهم عملية الرضاع.

وأيضاً لي دور مهم جداً في أداء عملية المضغ والبلع، - كما لا يخفى على كثير من الناس -؛ فأنا أقوم بتقليب ما تتناوله من الأطعمة والأغذية في فمك وأخلطها كما يخلط الخلائط (المأكنة) الأسمنت، وأبللها وأليتها بما تُفرزه الغدد اللعابية من الإفرازات وأجعلها مهيأة للبلع، وأخيراً أدفع اللقمة إلى البلعوم لتبلعها. وعليّ أن أكون حذراً ومتيقظاً جداً أثناء قيامي بهذه الأعمال؛



عددها حوالي ١٣ حليلة بالحليمات الكأسية. وهذه أيضًا تحمل براعم التذوق.

وتوجد على كل واحد من براعم التذوق الموجودة في الحليمات الكمية حوالي ٥٠-٧٠ خلية مستقبلية للتذوق. وعمر هذه الخلايا يتراوح بين ٧-١٠ أيام. والخلايا التي تموت بسبب تناول الأطعمة الحارة أو الأسيد (الحامض) يخلق بدلاً عنها خلايا جديدة ترتبط برؤوس الأعصاب الذوقية.

ولا بد لقيام مستقبلات التذوق بأداء وظائفها أن تكون المادة التي تتناولها مبللة وذائبة في الماء، ولذلك لا أستطيع أن أتذوق الأشياء الجافة فور تناولها، ولكن ما إن تتبل وتذوب هذه الأشياء إلى حد ما حتى تقوم خلايا التذوق التي يتم فيها التحليل في وقت قصير أدق مما يفعله أي مختبر كيميائي.. تقوم هذه الخلايا بتحويل هذا المحلول الكيميائي إلى تيار كهربائي وتوصله إلى دماغك، وهذه العملية تؤدي إلى إحساس الدماغ بالطعم.

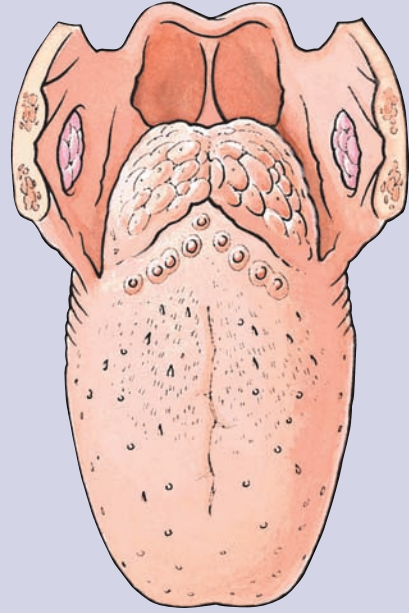
أنواع الطعم

ومع أن أنواع الطعم كثيرة إلا أنها تنقسم إلى أربعة أقسام رئيسية؛ فالخلايا التي تستقبل الطعم الحلو مجتمعة في الجزء الأمامي مني، والتي تستقبل الطعم المالح قد توزعت بشكل متوازن في السطح العلوي، والمستقبل للمر في القسم الخلفي، بينما المستقبل للحامض قد توزعت على جانبي. وأما القسم السفلي مني فهي - بدءاً من القمة إلى أسفل الفم - طبقة مخاطية ملساء لا توجد فيها حليمات، وهذه المنطقة يبدو لوفاً بنفسجياً لأن معظم عروقي التي أتغذى بها تمر منها.

وهناك مثل يضرب للسان كناية عن كثرة الكلام حيث يقال: "ليس للسان عظام"، ولكن هذا خطأ، فإن لي أيضاً عظماً ذا رأسين، والعضلات والأنسجة الرابطة التي في جذري تربطني بعظمي هذا ربطاً محكمًا، وهذا العظم مرتبط بفكك الأسفل. ولكن لأنه ليس في القسم الأمامي مني فلا يشكل عائقاً لحركتي، وبالتالي أنطق بكل ما يدور في قلبك وعقلك بسهولة ويسر.

أعراض وأمراض

وكما أن للأعضاء الأخرى أمراضاً تتعرض لها، فإني كذلك



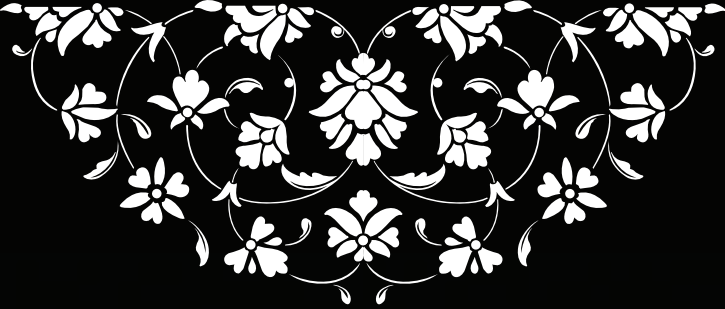
التي يتحقق من خلالها عملية التذوق، وعلى الغدد اللعابية التي تساعد على بقائي دائماً رطباً وندياً، ولا توجد هذه البراعم في الثلث الأخير من جهتي الخلفية (الجذر) التي صُوِّرت حدودها بأنها على شكل "٧"، وتوجد في هذا القسم كمية كبيرة من الغدد اللعابية والأنسجة اللمفاوية التي تعرف باللوزات اللسانية. وكثير من الميكروبات التي تدخل الفم تعلق بهذه المنطقة ويحال دون إضرارها بالجسم.

وتسمى الحليمات التي تغطي سطح اللسان بأسماء مختلفة حسب أشكالها (الخيضية - الكمية - الكأسية)، ولا توجد براعم التذوق في حليمات الخيضية، فدورها المساعدة على تحريك الطعام وتقليبه أثناء المضغ والبلع بفضل سطحها الخشن واحتكاكها به. وبهذه الحليمات أحول أجزاء الطعام التي فُتت بالأسنان وبللت باللعاب إلى لقمات يسهل بلعها.

والحليمات الكمية (التي تشبه الكما: الفطر) المتوزعة في ثنايا الحليمات الخيضية هي على شكل عقدة، وتتواجد في المنطقة الوسطى من ظهر اللسان، وتحمل في طياتها براعم التذوق.

وأقل الحليمات عددًا لكن أكبرها حجمًا هي التي نحدثنا عنها آنفًا بأنها توجد في الجزء الخلفي من قاعدة اللسان وتتموضع على شكل رقم سبعة (٧)، وتسمى هذه الحليمات الكبيرة التي يصل





مفتاح العالم

لمولّدك الشريف هلّل الكون وابتهج،
وطربت الملائكة وزهت،
وتفتحت ورود الأرض والسماء،
وغرّدت الأطيّار، وأنشدت البلابل،
وسقطت الطلّاسم،
وفكّت الألباز،
وأصبحت الكائنات كتاباً مفتوحاً،
يقرؤه الأميّ والفيلسوف...



أُتعرض للأمراض. والحقيقة أن معظم هذه الأمراض هي من جنس ما تتعرض له الأعضاء الأخرى أو من مرض ناتج من خلل أَيْضِيّ عام، لكنها في الوقت نفسه تؤثر سلبياً على مظهري الخارجي وتغير لونه. فعلى سبيل المثال؛ إن أكثر ما أُتعرض له من الأمراض هي القروح الأفنية (القلاعية)، ففي حين أن منها ما يعرض نتيجة التوتر النفسي والأرق ونقص الفيتامينات، فهناك من القروح القلاعية ما يكون من أعراض مرض "بمجت" والذي يتعرض له الإنسان نتيجة خلل في الامتصاص. وهذه القروح منها ما يدوم لمدة أسابيع ويؤلم كثيراً، ففي هذه الحالة قد تعانِي يا عبد الله كثيراً من الأوجاع، خصوصاً أثناء الكلام أو تناول الطعام. ومرض الزهري (الفرنجي) والقوباء وأمثالها من الأمراض تظهر أعراضها عليّ على شكل قروح. وقد يؤدي التدخين وتناول الساخن من الطعام والشراب إلى إصابتي بالسرطان.

عزيزي عبد الله!

إن أعضاءك التي لا تنطق عادة قد تحدثت عن نفسها بلسانها، وأما أنا فأتكلم على الدوام، غير أنني كنت أقوم دوماً بدور الترجمان عن أحاسيسك وأفكارك، وعلى كل حال فجميع ما أتفوه به من خير أو شر فوباله عليك، لأنني في هذا الأمر مربوط بإرادتك، وأما اليوم فقد تكلمت بلساني وباسم خالقي.

ويوجد في تراثكم مثل رائع يقول: "حافظ على يديك ولسانك وصلبك"، وكما يفهم من هذا المثل فإنه ليس بيدي الحفاظ على نفسي وليس لأحد غيرك أيضاً الحفاظ عليّ. واعلم جيداً أنني لست عبارة عن مجموعة من الأعصاب والعضلات، وإياك أن تنسى أنني قد أكون آلة وواسطة لسموك إلى المعالي أو هبوطك إلى الخسيف.

ومن الآن فصاعداً إذا أكلت تفاحة مثلاً فلا تبلعها قبل أن تمضغها جيداً، بل امضغها على مهل وتريث إلى أن أتذوقها جيداً، وبذلك تجد الفرصة لأداء الشكر على تلك النعمة، وتتفتح لك الآفاق الواسعة نحو إدراك العبودية تجاه ربك الذي رزقك تلك التفاحة وأودعني في فيك لتتذوق طعمها. ■

(٤) جامعة ٩ أيلول / تركيا. الترجمة عن التركية: أحيّر أشيوك.



الجيل القرآني وبنائه العلمي

أ.د. زغلول النجار*

هذه الحياة ومن استقرائه لسنن الله في الكون، ومحاكاته لما أوجد الله تعالى فيه من خلق. ويشمل ذلك هداية الله سبحانه وتعالى التي أنزلها على سلسلة طويلة من أنبيائه ورسله، وأكملها وأتمها في القرآن الكريم وفي سنة خاتم الأنبياء والمرسلين صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين. كما يشمل كل المعارف المكتسبة وميراث البشرية من هذه المصادر جميعها عبر التاريخ.

ولكن ساد بين الناس اليوم قصر لفظة "العلم" على العلوم البحتة والتطبيقية القائمة على الملاحظة والاستنتاج، أو على التجربة والملاحظة والاستنتاج المطبقة على الكون ومكوناته وظواهره المتعلقة بمختلف صور المادة والطاقة والجمادات والأحياء فيه. و"العلم" بهذا التحديد بدأ مع الإنسان منذ اللحظة الأولى لوجوده على هذه الأرض، ثم تزايد بالتدرج في عمليات من المد والحزر، ولكنه نما في الحضارة الإسلامية نموًا متوازنًا جمع بين وحي السماء والعلوم المكتسبة في تكامل وانسجام. ثم انتقل هذا العلم الإسلامي بمنهجه التجريبي إلى الغرب عبر دولة الإسلام في الأندلس، وعبر الاحتكاك مع المسلمين في كل من صقلية

للإنسان في هذه الحياة رسالة ذات وجهين: أولهما عبادة الله تعالى بما أمر، وثانيهما حسن القيام بواجبات الاستخلاف في الأرض بعمارتهما وإقامة عدل الله فيها.

وهذه الرسالة بشقيها لا يفهمها فهمًا كاملاً إلا أبناء وبنات الجيل القرآني الذين تربوا على هذا الكتاب العزيز. ومن هنا كان الحرص على العودة بأجيال أمة الإسلام إلى هذا الجيل القرآني واستكمال بنائه العلمي والتربوي حتى يعود للأمة مجدها التليد، ودورها في هداية البشرية الضالة النათية.

بعث النازع العلمي في رجل القرآن

تعرف "العلوم" لغة بأنها مجموع ما علمه الإنسان من معارف وأخبار جمعت له عبر الزمن في مختلف الأماكن والعصور مرتبة حسب ما تتعلق به من أمور. ويشمل ذلك كلا من المعارف الموهوبة التي علمها الله تعالى لأبينا آدم عليه السلام لحظة خلقه، وورثتها لبنينه من بعده، وأنزلها على عدد من أنبيائه ورسله؛ كما يشمل المعارف المكتسبة والتي جمعها الإنسان عبر العصور من تجاربه في



وجنوب إيطاليا وشمال أفريقيا وبلاد الشام خاصة خلال الحروب الصليبية. ولكن المنهج العلمي الإسلامي عندما انتقل إلى الغرب كانت الكنيسة مهيمنة على الحياة فيه هيمنة كاملة، فرضت خلالها سفر التكوين على المعارف الإنسانية. وعندما اصطدمت نتائج المنهج التجريبي مع تفسيرات الكنيسة بدأ الصراع بين العلماء والكنيسة وحُسم لصالح العلوم المكتسبة. فبدأت تلك العلوم من منطلقات مادية بحتة منكورة كل ما هو غير مدرك أو محسوس بما في ذلك الدين. فانطلقت كل المعارف المكتسبة في الغرب من منطلقات معادية للدين، منكورة للغيب، دائرة في حدود المادة وحدها متجاوزة لكل ما هو فوق ذلك.

من هنا أثر أهل القرآن الكريم وحفظته البعد عن هذه المعارف المعارضة للأصول الإسلامية الثابتة. فوصلنا إلى ما وصلنا إليه من تخلف علمي وتقني أفقر شعوبنا وجعلنا في حاجة إلى غيرنا من الأمم. ولكن المعطيات الكلية للعلوم المكتسبة في العقود المتأخرة من القرن العشرين -وعلى الرغم من أصحابها- بدأت في تأييد كل ما جاءت به الهداية الربانية التي تكاملت في بعثة النبي والرسول الخاتم ﷺ. ومن مقومات استكمال البناء العلمي لجليل القرآن الكريم الإمام هذه المعطيات الكلية للعلوم.

من المعطيات الكلية للعلوم

بلغت المعارف بالكون المادي في هذه الأيام مستوى لم تبلغه البشرية من قبل، وأصبحت الاستنتاجات الكلية لتلك المعارف تؤكد كل ما جاء به الدين من إيمان بالله الخالق البارئ المصور، وتنزيه له سبحانه وتعالى عن الشريك والشبيه والمنازع والصاحبة والولد، وعن جميع صفات خلقه، وعن كل وصف لا يليق بجلاله، كما تؤكد ضرورة الإيمان بالغيب وبالوحي وبالبعث والحساب. ويمكن إنجاز المعطيات الكلية للعلوم فيما يلي:

● إن هذا الكون الذي نحيا فيه كون محدود، ولكنه كون متناه في أبعاده، مُذهل في دقة بنائه وانتظام حركاته، وإحكام ترابطه، مما يشهد لخالقه بالألوهية والربوبية، وبطلاقة القدرة وبداعة الصنعة وإحكام الخلق.

● إن هذا الكون مبني على زوجية واضحة من اللبّات الأولية للمادة إلى الإنسان، ومبني في الوقت ذاته على نفس النظام من أدق دقائقه إلى أكبر وحداته مما يشهد لخالقه بالوحدانية المطلقة فوق جميع خلقه.

● إن هذا الكون دائم الاتساع إلى نهاية لا تستطيع العلوم المكتسبة إدراكها وإن أمكنها قياس معدلات هذا التوسع.

● لكون على قَدَمه مستحدث مخلوق، كانت له بداية في الماضي السحيق تقدر بحوالي أربعة عشر بليون سنة مضت. وكل مستحدث عارض لا بد وأن تكون له في يوم من الأيام نهاية تؤكد كل الظواهر الكونية من حولنا، وإن عجز الإنسان عن تحديدها وقتها.

● إن هذا الكون المادي لا يمكن أن يكون قد أوجد نفسه بنفسه، ولا يمكن لأي من مكوناته المادية أن تكون قد أوجدته، كذلك لا يمكن أن يكون قد وجد بمحض الصدفة، لأن العشوائية أو الصدفة لا يمكن لها أن تنتج كوناً بهذا الاتساع ودقة البناء والانتظام في الحركة.

● إن الخلية الحية التي لا يكاد قطرُها يزيد على ٠,٣ من المليمتر تبلغ من تعقيد البناء وكفاءة الأداء ما لم يبلغه أكبر المصانع التي أنشأها الإنسان، بل التي فكر في إنشائها ولم يتمكن من ذلك بعد. فقد أعطاها الله تعالى القدرة على إنتاج مئتي ألف نوع من البروتين تعجز أكبر المصانع التي أنشأها الإنسان عن إنتاجها، ومن ثم فلا يمكن لها أن تكون قد وجدت بمحض المصادفة.

● إن الشيفرة الوراثية التي تشغل حيزاً أقل من واحد من المليون من المليمتر المكعب في نواة الخلية الحية يصل طولها إذا فردت إلى قرابة المترين، وتحتوي على ١٨,٦ بليون جُزء كيميائي ترتب ترتيباً محكماً، لو اختل وضع ذرة واحدة منه إما أن يشوه هذا المخلوق أو لا يكون. وإذا عرفنا أن جسده الفرد الواحد منا يتكون من تريليونات الخلايا وأن بنواة كل خلية مترين من جزئيات الشيفرة الوراثية، اتضح أن بجسد كل منا تريليونات الكيلومترات من هذه الجزئيات، وهو رقم يزيد في طوله عشرات المرات عن المسافة بين الأرض والشمس والمقدرة بحوالي ١٥٠ مليون كيلومتر، ولا يمكن لعقل أن يتخيل جمع هذه التريلونات من الجزئيات الكيميائية الفائقة التعقيد والدقة وترتيبها هذا الترتيب المحكم بمحض الصدفة.

● إذا علمنا أن الخلية الحية بهذا التعقيد في البناء، والكفاءة في الأداء، فإنه يستحيل تخيل إيجادها بمحض الصدفة، وبالتالي إيجاد قرابة الخمسة ملايين نوع من أنواع الحياة الموجودة والبائدة بمحض الصدفة، وأن يمثل كل نوع منها ببلالين الأفراد بمحض الصدفة كذلك.



● إن لبنات بناء أجساد الكائنات الحية وهي الجزيئات البروتينية على قدر من الانتظام في الترابط والأداء والتعقيد في البناء ينفيان أي احتمال للعشوائية أو الصدفة، وكذلك لبنات بناء الجزيئات البروتينية وهي الأحماض الأمينية التي لا يمكن لعامل أن يتخيل تكوُّنها أو ترابطها بروابط محددة بمحض الصدفة. هذه المعطيات هي قليل من كثير ولكنها تفضي على الحقائق المنطقية التالية.

العلوم تؤكد حتمية القدرة الإلهية

● إذا كان الكون الحادث لا يمكن له أن يوجد نفسه بنفسه، أو أن يكون قد وجد بمحض الصدفة، فلا بد له من موجد عظيم له من العلم والقدرة والحكمة ما يفوق جميع قدرات خلقه؛ ولا بد لهذا الخالق العظيم من الصفات ما يغير صفات المخلوقين جميعاً؛ فلا يحده أي من المكان أو الزمان، ولا تشكله قوالب المادة والطاقة، لأنه خالق ذلك وموجده، والمخلوق لا يحدّ خالقه أبداً. ولذلك وصف ربنا تبارك وتعالى ذاته العلية بقوله العزيز: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ (الأنعام: ١٠٣). ويقول سبحانه: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ (الشورى: ١١).

● هذا الخالق العظيم الذي أوجد الكون بكل ما فيه ومن فيه هو وحده الذي يملك القدرة على إفنائه ثم إعادة خلقه وقتما شاء وكيفما شاء، وفي ذلك يقول وقوله الحق: ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجْلِ لِلْكِتَابِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعَدًّا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ (الأنبياء: ١٠٤). ويقول: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ (يس: ٨٢).

● إن بناء الكون في زوجية كاملة من اللبنة الأولية للمادة إلى الإنسان تشير إلى وحدانية الخالق العظيم وإلى تفرده بمهده الوحدانية المطلقة فوق جميع خلقه. وتتضح وحدة البناء الكوني في بناء مكوناته من الذرة إلى المجرة إلى بناء الكون كله، ومن الخلية الحية المفردة إلى الإنسان البالغ. كما تتضح في تأصل العناصر وردها كلها إلى أصل واحد هو "غاز الأيدروجين" أبسط العناصر بناء وأقلها مكونات، وحيث تتكون ذراته من بروتون واحد يحمل شحنة كهربائية موجبة يدور حوله إلكترون واحد يحمل شحنة كهربائية سالبة. وتتضح في تواصل كل من مختلف صور الطاقة وتواصل كل من المادة والطاقة والمكان والزمان -وهو تواصل في تزاوج- وحدانية الخالق سبحانه وتعالى تفرده

بتلك الوحدانية المطلقة فوق جميع خلقه واستعلاؤه بمقام الألوهية الذي لا يشاركه فيه أحد ولا ينازعه منازع ولا يشبهه من خلقه شيء.

● إن العلوم الكونية المكتسبة -في تعاملها مع المدرك المحسوس- توصلت إلى حقيقة الغيب، وإلى أن في الكون غيوباً كثيرة لا يستطيع الإنسان الوصول إليها بجهده وحواسه وقدرات عقله. ولولا الجري وراء المجهول ما استمرت تلك العلوم في التطور والنماء. ومن الغيوب ما هو مرحلي قد يصل الإنسان إليه، ومنها ما هو مطلق لا سبيل للإنسان إليه إلا عن طريق وحي السماء. ومن الغيوب المطلقة المحجوبة عنا حجبا كاملا: الذات الإلهية، الروح، الملائكة، حياة البرزخ، الآخرة، البعث، الحشر، الميزان، الصراط، الجنة، النار، وغيرها كثير كثير.

● تؤكد العلوم التجريبية أن بالأحياء أسراراً لا نعرف كنهها، لأننا نعرف مكونات الخلية الحية كاملة، ومع ذلك لم يستطع العلماء بناء خلية حية واحدة. وأقصى ما أنتجته العلوم المكتسبة هو صناعة المورث (الجين)، وهو مركب كيميائي ميت لا ينشط إلا في داخل الخلية الحية مما يؤكد أن الحياة من الأسرار التي يعرف الإنسان ظواهرها ولا يعرف كنهها.

● إن إمعان النظر في الكون يؤكد حاجته بكل ما فيه ومن فيه إلى رعاية خالقه العظيم في كل لحظة من لحظات وجوده. ولولا هذه الرعاية الإلهية ما كان الكون ولا كان ما فيه ولا من فيه.

● إن العلوم المكتسبة إذ تقرر أن الكون والإنسان في تشكيلهما الحاليين ليسا أبديين فإنها -وعلى غير قصد منها- تؤكد حقيقة الآخرة، بل حتميتها، والموت يترأى في مختلف جنبات الكون حاصداً الإنسان والحيوان والنبات والجماد وأجرام السماء على تباين هياتهما في كل وقت.

● إن الإشارة الكونية في كتاب الله وفي سنة رسوله ﷺ لا يمكن فهمها فهما في إطار اللغة وحدها، بل لا بد من توظيف البعد العلمي لتحقيق ذلك.

● إن السبق العلمي لكل من القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة لا يمكن إثباته إلا بتوظيف الحقائق العلمية في شرح دلالة الإشارات العلمية في هذين المصدرين من مصادر الإسلام. ■

(٤) أستاذ علوم الأرض ورئيس لجنة الإعجاز العلمي بالمجلس الأعلى للشؤون الإسلامية / مصر.



محمد إقبال وبديع الزمان النورسي

أ.د. حسن الأمراي* ❖

المسلم العظيم المنطلق من شبه القارة الهندية ليحلق في كل قطر من أقطار العالم، وشعرت بفخر عظيم أن يكون من شعراء الإسلام شاعر بحجم إقبال. ولعلّه وطد في نفسي الاعتزاز بالانتماء إلى دوحه الأدب الإسلامي السامقة، فأضيف إلى الشعور بالإعجاب عاطفة الحب. فلقد أحببت هذا الشاعر المفكر الذي سخر ما منحه الله تعالى من مواهب للدفاع عن الإسلام والمسلمين في شبه القارة الهندية، وفي غيرها من أقطار الأرض، والدفاع عن الإنسانية كلها من خلال الإسلام. وقد أحسسته قريباً إلى نفسي واعتبرته صديقاً ورفيقاً، وإن كان على الحقيقة أستاذاً وموجهاً.

النورسي وإقبال... رجلا القرآن

وما أرى الحب الذي شدني إلى بديع الزمان النورسي ومحمد إقبال إلا لصفات مشتركة جمعت بين الرجلين، ولئن كان ذلك عندي شعوراً غامضاً أول الأمر أحسّه ولا أكاد أدرك أسبابه، فلقد تبين لي بالتأمل والتتبع أن مظاهر الائتلاف بين الرجلين متعددة، وأن الاختلاف القائم بينهما - إذ لا بد أن تظل لكل واحد منهما شخصيته المتميزة - إنما هو اختلاف تواد لا اختلاف تضاد.

ولعل أكبر مظاهر الائتلاف بين الرجلين أننا لا نعدو الحق قيد أملة إن نحن أطلقنا على كل واحد منهما "الرجل القرآني". فعلى الرغم من سعة علم الرجلين وتبحرهما في علوم الشرق والغرب، إلا أن مدار الأمر كله عندهما هو القرآن الكريم أولاً وآخراً، وما سوى ذلك إنما كان تفريعاً يدور حول القرآن الكريم.

محمد إقبال.. الشاعر المفكر

أما أحلى مظاهر الاختلاف بين الرجلين فمرده إلى ترتيب أولوية المهابة عند كل واحد منهما. فمحمد إقبال شاعر أولاً، فالشعر هو الغالب عليه، ولكنه رجل مفكر في شعره، فليس شعره بذلك الشعر الذي يعني ببراعة التصوير ودقة التعبير، بمعزل عما يحمل ذلك الشعر من فكر صحيح وعقل راجح وقلب متقد، ولعل هذا

في الندوة التي احتضنتها جامعة وحدة في المغرب عن "حوار الشرق والغرب في رسائل النور"^(١) أشرت إلى العلاقة بين محمد إقبال وبديع الزمان سعيد النورسي. فالتقط الأستاذ إحسان قاسم هذه الإشارة العابرة ببصره الحصيف، ورغب إلي إعداد بحث مفصل في الموضوع.

بداية الرحلة.. بين الحب والإشفاق

وقد سعدت بهذه الرغبة وأشفتت منها في الوقت ذاته، سعدت بما لأنها تمنحني فرصة أخرى لمصاحبة علمين شامخين أحببتهما منذ سنوات الطلب الأولى واعتبرت نفسي مديناً لهما في ميدان الفكر والأدب، وأشفتت منها لأن كل واحد من الرجلين بحر عميق يحتاج الغوص إلى أغواره لالتقاط ما يكتنزه من درر إلى سباح ماهر، وما أزعم لنفسي ذلك، فكيف إذا تعلق الأمر بتناول الرجلين معا في أدبهما وفكرهما لاستخلاص ما يمكن أن يظهر عندهما من مظاهر الائتلاف والاختلاف؟ إنه لأمر جليل حقاً.

ولكن الرغبة في مصاحبة الرجلين والاعتراف من بحرَيْهما غلبت الإشفاق، على قلة الزاد وكثرة الأعباء، فاستعنت بالله تعالى وأقبلت على موضوعي طامعاً في ملامسة بعض أطرافه، إذ الإحاطة به أمر قد تنقطع دونه الأعناق، وتضعف المهمم. وشجّعني على ذلك شغفي بالرجلين من قديم وحيي لهما. فأما بديع الزمان فقد عرفته من خلال بعض الرسائل الصغيرة التي وقعت إليّ في ذلك الزمان المبكر، زمن الطلب الأول، مثل "رسالة الإخلاص" و"الخطبة الشامية"، وكلفت به، واعتبرته شيخاً مريباً، قبل أن يقدر الله تعالى لي أن أظفر بذلك الكنز العظيم المتمثل في "كليات رسائل النور".

أما محمد إقبال فقد جمعني به أكثر من سبب، وقد عرفته شاعراً ومفكراً، ولو من خلال ما ترجم له من فكره وأدبه إلى العربية. ولقد عهدتني قبل أن أعرف محمد إقبال معجبا بأدب الهند وفنونها. ولكنني حين اكتشفت إقبالا، عرفت فيه الشاعر





"أيها الناس! أتريدون تحويل عمركم القصير الفاني إلى عمر باق طويل مديد، بل مثمر بالمغانم والمنافع؟ فما دام الجواب أن نعم، وهو مقتضى الإنسانية، فاصرفوا إذن عمركم في سبيل الباقي، لأن أيما شيء يتوجه إلى الباقي ينال تجليًا من تجلياته الباقية".

بديع الزمان سعيد النورسي

"المنثوي العربي النوري" مثلاً ناطقاً على هذا. فإقبال إذن شاعر مفكر، وبديع الزمان مفكر شاعر، ثم تأتّى بعد ذلك مظاهر الائتلاف بين الرجلين تترى.

رجل القدر في حياة أمة

عاش كل من محمد إقبال والنورسي في فترة عصيبة من حياة الأمة الإسلامية، هي فترة العقدين الأخيرين من القرن التاسع عشر والعقود الأولى من القرن العشرين. فقد ولد الرجلان في فترة واحدة تقريباً؛ ولد محمد إقبال عام ١٨٧٧م، وولد بديع الزمان النورسي عام ١٨٧٦. وشهد الرجلان وهما في فترات التكوين الأولى ما تتعرض له أمتهم من هوان على يد الاستعمار الغربي من جهة، وبعض الحكام الفاسدين من جهة أخرى. فكان الاستعمار الغربي يأتيها ينقصها من أطرافها، ويسعى إلى الإجهاد عليها حضارياً، وكانت الخلافة العثمانية على ضعفها تمثل رمزا تتوحد تحت ظلالة أمة الإسلام، فتجد لها الدول الغربية هيبة لذلك. فلم يبق إلا أن تتآمر من أجل الإجهاد على هذا الكيان الذي بقي يمثل الخيط الرابط بين أجزاء هذه الأمة المترامية الأطراف.

وكانت تركيا، أقرب الأجزاء إلى الغرب وأكثرها تعرضاً للاحتكاك به كل حين، فلا غرو أن تكون أكثر الأقطار الإسلامية بلاء. وكانت الهند -على النقيض من ذلك- أبعد تلك الأطراف، إن لم تكن أبعداً على الإطلاق، ولكنها كانت في الوقت ذاته جوهرة التاج البريطاني. ولم يكن من اليسير أبداً التفريط فيها، لأن في ذلك انفراطاً لعقد الإمبراطورية التي كانت لا تغيب عنها الشمس. وعندما دخلت بريطانيا الهند كان للمسلمين فيها شأن عظيم، وكانت الإمارات الشمالية خاصة تحت إمرة المسلمين. ولكن الضعف الناتج عن الانصراف إلى ملذات الحياة الدنيا كان قد أخذ من ذلك الكيان مأخذه.

سر انتشار شعر إقبال عالمياً. فالشعر حين يترجم يفقد عادة كثيراً من خصائصه. وقد أشار شيخ نقادنا القدامى "الجاحظ" إلى أن الشعر لا يترجم، لأنه إذا ترجم فقد ذلك المعجز الذي هو الوزن. ولكن شعر محمد إقبال لا يكتسب جماله من كونه كلاماً موزوناً مقفياً فحسب، بل هو يكتسبه من ذلك القبس الرباني الذي يسري فيه، والعمق الإيماني الذي يتلبّسه، والفكر المستنير الذي يسوقه، وقد ألبسه ثوباً قشيباً من الخيال اللماح. فلذلك كله نقرأ شعر إقبال وقد ترجم من لغته الفارسية أو الأوردية إلى العربية مثلاً، فيهنّأ من الأعماق ونستجيب له كما لا نستجيب لكثير من الشعر العربي السيّار في منابرنا الثقافية اليوم، ونحن نقرؤه في لغته، لأنه كلام بارد غثّ فقد حرارة الإيمان وتوهج العاطفة.

لقد خلّف إقبال في مجال النثر والدراسة عدداً من المحاضرات والدروس، من أشهرها محاضراته التي جمعت في كتاب عنوانه "تجديد الفكر الديني في الإسلام"، ولكن فكر إقبال الأصيل المتفرد إنما يتجلى في شعره أولاً. ولعل بعض المآخذ التي أخذت عليه كثيراً إنما كانت في تلك الدراسات الثرية، لا في شعره. فأنّت لا تجد في شعره إلا ذلك التدفق الإيماني المبشر بالإسلام والداعي في عمق إلى يقظة المسلمين.

بديع الزمان.. المفكر الشاعر

وإذا كان محمد إقبال شاعراً أولاً، كما قررنا آنفاً، فإن بديع الزمان النورسي مفكر أولاً، ولئن كان يقرر في أكثر من موضع من الرسائل أنه حُرْم نعمة النظم، إلا أنه رُزق روحاً شعرية وأسلوباً شعرياً بديعاً يجعل كلامه من حاقّ الشعر. وذلك الأسلوب الشعري بما اشتمل عليه من نداوة وطلاوة، وما تضمنه من تخيل وتمثيل وضرب للأمثال صار ميسماً لرسائل النور، وهو مما يهبها التفرد في التعبير مثلما وهبت التفرد في التفكير. ويقوم



"كن مثل الشيخ فريد الدين العطار في معرفته، وجمال الدين الرومي في حكمته، أو أبي حامد الغزالي في علمه وذكائه، وكن مع من شئت في العلم والحكمة، ولكنك لا ترجع بطائل حتى تكون لك أنة في السحر".

محمد إقبال



حياة النورسي... ملحمة إنسانية

في هذا الظرف بالذات كان كل من بديع الزمان النورسي ومحمد إقبال رجل القدر في حياة أمة. لقد كانت حياة الأستاذ بديع الزمان حافلة بالأحداث الجسام، وهي تمثل ملحمة إنسانية حقا. ولا يملك قارئ سيرته الخصلة إلا أن يسلم أن الأستاذ كان فعلا رجل القدر في حياة أمة. وقد جعل همه الأول إنقاذ الإيمان، ولم يكن ذلك أمرا هيناً؛ فالإيمان مناط الأمر كله، ولذلك كان متوقعا ألا يكون طريق الأستاذ لاحبا لينا، ولا أن يكون جهاده هينا. كما كان متوقعا أن يجد مقاومة عنيفة وشرسة من خصوم الأمة ومن أعدائها الداخلين والخارجيين، بالرغم من أن منهج الأستاذ كان يقوم على اللين والدعوة إلى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة.

وما المحاكمات المتوالية التي تعرض لها الأستاذ والسجون التي ذاق نكالتها، غير دليل ساطع على ذلك الجهاد الكبير الذي قام به. والرفق الذي اتبعه الأستاذ بديع الزمان في جهاده لم يكن يقوم على السلبية تحت شعار "اللاعنف" كما فعل غاندي في الهند مثلا، بل كان يقوم على الجهاد. وللجهاد صور شتى، ولم يكن الجهاد العسكري نفسه خارج دائرتها، وقد حمل الأستاذ السلاح وقاتل بنفسه أعداء الأمة، ولكل مرحلة صورتها من صور الجهاد. فخلال الحرب العالمية الأولى، والجيش الروسية تحاول الاندفاع نحو الأناضول كان سعيد النورسي يقاتل هو وطلابه الجيش الروسي بكل ما أوتوا من جهد. وفي هذه المعارك وفي خنادق القتال ألف تفسيره القيم "إشارات الإعجاز في مظان المجاز" باللغة العربية. وهكذا كان النورسي فارس السيف والقلم.

محمد إقبال.. المؤرق بموم الأمة

وهنا أيضا يلتقي العلامة محمد إقبال مع الأستاذ بديع الزمان

النورسي، فقد كان إقبال مناهضا للاستعمار الغربي بجميع مظاهره وأشكاله، وكان في الوقت نفسه شديدا على أمراء الولايات الإسلامية الذين ألهتهم الحياة الدنيا عن الجهاد والدفاع عن المستضعفين. وبمناسبة مستقبل المسلمين في الهند قال: "أشرت على بعض أمراء المسلمين أصحاب الولايات بالعناية بنشر الإسلام في غير المسلمين، ونشر الثقافة والآداب الإسلامية في المسلمين، وإحياء اللغة العربية وأدبها في هذه البلاد، والانتفاع بثروتهم بتأسيس بنك عالمي، وإنشاء صحيفة إنجليزية عالمية تدافع عن قضايا المسلمين، حتى يحسب لهم حساب ويرهب جانبهم، وتكون لهم مكانة عالمية تحشى وترجى، وإن في ذلك صيانة لدولتهم وضمانا لكيانهم. ولكن الأمراء المسلمين لم يعرفوا أهمية هذه المسألة، ودقة موقفهم والأخطار التي تحقد بهم". وكان يشكو قصر نظرهم، وضعف تفكيرهم، واشتغالهم بنفسهم.

التبحر في علوم الشرق والغرب

يرى قارئ سيرة محمد إقبال وبديع الزمان النورسي مشابه واضحة بين الرجلين. فقد هُل كل منهما من الثقافتين الشرقية والغربية وتضلع فيها تضلعا جعله مؤهلا للرسالة الشاخنة التي أنيطت به. فلقد درس إقبال في مدرسة إنجليزية في بلده، ثم التحق بالكلية في ذلك البلد، وهناك درس العربية والفارسية. وحين انضم إلى كلية الحكومة في لاهور، عاصمة البنجاب، حضر شهادة في الفلسفة، وبرز في العربية والإنجليزية، ونال وسامين، وأخذ شهادة (B.A) بامتياز، ثم نال شهادة (M.A) في الفلسفة أيضا. ومنذ عام ١٩٠٥م بدأت رحلة إقبال في عالم الغرب للنهل من ثقافته. وقد بدأ هذه الرحلة بالالتحاق بجامعة "كامبرج" في لندن حيث بقي هناك ثلاث سنوات، قبل أن يلتحق بجامعة ميونيخ بألمانيا لينال من هناك الدكتوراه في الفلسفة، ويعود إلى لندن مرة أخرى، ليرجع



إلى الهند وقد نال من علوم الغرب، في دياره، ما مكنه من معرفة أسرار الحضارة الغربية، حتى إذا قام لانتقادها قام بذلك على بصيرة. وقد قام أثناء إقامته في بريطانيا بتدريس الآداب باللغة العربية في جامعة لندن، مدة غياب أستاذه توماس أرنولد.

أما بديع الزمان النورسي فقد تبَّحَّر هو كذلك في الثقافة الغربية، فاطَّلع على فلسفتها ومذاهبها الفكرية، وبرزت مواهبه في تنفيذ المذاهب الفكرية والفلسفية المنحرفة. ومما يذكر هنا أن كلا الرجلين أدرك تلك المكانة الرفيعة في وقت مبكر من السن. وقد آتس بديع الزمان ذلك من نفسه، إذ لما رحل إلى إسطنبول عام ١٨٩٦م، وهو دون العشرين من العمر، علق لوحة على بابه كتب فيها: "هنا تحل كل معضلة ويجاب عن كل سؤال من دون توجيه سؤال لأحد".

التشيع بحب العربية

كان كل من بديع الزمان النورسي ومحمد إقبال رجلا أعجميا غير عربي، ولكن لما كان كل واحد منهما يجعل القرآن الكريم زاده، ومبتداه ومنتهاه، لا يصدر إلا عنه، ولا يستظل إلا بظله، تشربا حب العربية ودافعا عنها ورأياها من تمام الدين. فأما بديع الزمان فكان إتقانه للعربية عظيما، وحبها كثيرا، وقد بدأ التأليف بها قبل أن يؤلف بالتركية، إذ كان أول ما نشر له بالعربية كتابه القيم: "إشارات الإعجاز"، ثم في سنة ١٩٢١ "قزل إيجاز في المنطق". وفي أنقرة ألف "ذيل الذيل" و"الحجاب" وأجزاء أخرى من "المتنوي العربي النوري".

أما محمد إقبال فقد كتب دواوينه الأولى بالأوردية أولا، ثم كتب بعد ذلك سائر دواوينه بالفارسية، لأنها في رأيه أكثر انتشارا. أما العربية فلم يؤثر عنه أنه كتب بها، إلا أنه كان لها محبا، وفي علومها متبحرا، وإلى تعليمها وتلقينها كافة المسلمين داعيا، إذ لا سبيل إلى النهوض الحضاري إلا بالقرآن الكريم وتدبره، ولن يكون ذلك أبدا إلا عن طريق العربية.

مدرسة القلب والوجدان

وقد تتبع أبو الحسن الندوي رحمه الله العوامل التي كونت شخصية محمد إقبال، فذكر أنه تخرج من مدرستين: المدرسة الأولى هي مدرسة الثقافة العصرية والدراسات الغربية، وهي مدرسة -على أهميتها- أمرها هين. وأما المدرسة الثانية التي كان لها أعظم الأثر في شخصيته فهي مدرسة متميزة، لأنها مدرسة داخلية تولد مع

الإنسان، ويحملها الإنسان معه في كل مكان، وهي مدرسة القلب والوجدان، وهي مدرسة تشرف عليها المدرسة الإلهية وتمدها القوة الروحية. أما العوامل الخمسة التي نبعت من هذه المدرسة المتفردة وكونت شخصية إقبال فهي:

١- الإيمان، ٢- القرآن الكريم، ٣- معرفة النفس، ٤- الاتصال بالله تعالى، ومناجاة ربه ساعة السحر حيث يقول في قصيدة: "اللهم ارزق الشباب أنِّي في السحر"، ٥- المتنوي الفارسي الذي نظمته جلال الدين الرومي في ثورة وجدانية ونفسية جديدة ضد الموجهة الإغريقية العصرية التي اجتاحت العالم الإسلامي في عصره. ولما تدبَّرت هذه العوامل جميعا، وعرضتها على سيرة بديع الزمان النورسي وجدتها تستجيب لها أيما استجابة، ووجدت سببا آخر من أسباب اتئلاف الرجلين، حتى لكأن أبا الحسن الندوي كان يتحدث عن النورسي لا عن إقبال.

فأما الإيمان فيكفي أن الأستاذ بديع الزمان وقف رسالته على شيء واحد هو إنقاذ الإيمان، وقد ضحى في سبيل ذلك بكل غال ونفيس. أليس هو القائل في هذا الصدد: "نعم، إن أجل مسألة في هذا الكون وأعظم سر خلق العالم هو سر الإيمان. فليس في الوجود مسألة أعظم منه كي يسخر في سبيلها ويستخدم لأجلها؟".

وأما معرفة النفس، فقد جعلها النورسي طريقا لا بد منه لسلك الطريق القويم. وأما القرآن الكريم فيكفي أن أعظم ما كان يحب النورسي أن يوصف به هو أنه خادم القرآن الكريم، وهو القائل: "لأبرهنن للعالم بأن القرآن شمس معنوية لا يخبو سناها ولا يمكن إطفاء نورها".

وأما جلال الدين الرومي وديوانه "المتنوي" فحسبنا أن نعلم أن إعجاب النورسي به بلغ حد وضع كتاب على منواله هو "المتنوي العربي النوري". وهذا أمر يدعو إلى الدهشة، إذ كيف حدث أن يكون جلال الدين الرومي وكتابه المتنوي أقرب الكتب إلى روح الرجلين على كثرة العلماء والأدباء والعارفين الذين تم الاستشهاد بهم؟! ■

(٤) رئيس تحرير مجلة المشكاة / المغرب.

(١) عقدت الندوة في كلية الآداب والعلوم الإنسانية في جامعة وحدة بالمغرب في شهر أبريل سنة ٢٠٠٠.



خاطب النبي ﷺ الناس جميعاً خطاباً يعلو على جميع المشارب
والثقافات، ولكن بأسلوب فائق الروعة لا يخرج أحداً ولا
يخدش مشاعره، فيؤثر في النفوس المهيأة ويوقظها.

الله

جمالية التعريف القرآني بالله

أ.د. فريد الأنصاري *

أسماءه - وهي أسماء صفات - بكونها "حسنى". إنها أنوار متدفقة من مشكاة الله ذات البهاء الدرّي، قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا﴾ (الأعراف: ١٨٠). وقال سبحانه: ﴿قُلْ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾ (الإسراء: ١١٠). ومن هنا كانت البداية في قصة المحبة.

النعمة الأولى.. الخلق

الله.. هو الأول بلا ابتداء، والآخر بلا انتهاء. سبحانه وتعالى علواً كبيراً. إنما عرفه الإنسان أول ما عرفه "رباً"، فلما عرف منه تعالى ما عرف، ألهمه قلبه فعبده. إن أول نعمة إلهية ظاهرة فاضت أنوارها على الإنسان من مشكاة أسماء الله الحسنى "الخالق" و"البارئ" و"المصور"، وما إليها من الأسماء والصفات كانت

الله رباً هو بدء تدفق الجمال على عقيدة الإسلام، إذ إن جمال الرب عز وجل يفيض من بهاء ذاته تعالى وصفاته. وإنما صفاته تعالى هي صفات الجمال والجلال، إنه النور الخارق الذي لا يطاق. فعن أبي موسى رضي الله عنه قال: قام فينا رسول الله ﷺ بخمس كلمات، فقال: "إن الله لا ينام، ولا ينبغي له أن ينام، يخفض القسط ويرفعه. يُرْفَعُ إِلَيْهِ عَمَلُ اللَّيْلِ قَبْلَ عَمَلِ النَّهَارِ، وَعَمَلُ النَّهَارِ قَبْلَ عَمَلِ اللَّيْلِ، حِجَابُهُ النَّورُ، لَوْ كَشَفَهُ لِأَحْرَقَتْ سُبُحَاتُ وَجْهِهِ مَا انْتَهَى إِلَيْهِ بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِهِ." (رواه ابن ماجه) والشُّبُحَاتُ جمع سُبْحَةٍ: وهي ما يفيض عن الذات الجميلة من لآلئ النور، ونوابض الحسن، وأشعة الجمال. ومن هنا وصف سبحانه

الحبة ثمرة المعرفة

من هنا إذن كانت معرفة الربوبية مورثة لمحبة الله، أي لعبادته. ولذلك فقد وردت التوجيهات التربوية النبوية للأمة العابدة المحبة لربها أن تذكره تعبداً بجلال ربوبيته سبحانه. قال ﷺ: "من قال رضيت بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد نبياً وجبت له الجنة" (رواه أبو داود). وذكر النبي ﷺ في هذا السياق قصة طريفة مفادها أن عبداً من عباد الله قال: "يا ربي، لك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك وعظيم سلطانك" فَعَصَلْتُ بِالْمَلَكَيْنِ فلم يدريا كيف يكتبانها. (...) فقال الله عز وجل: اكتبها كما قال عبدي حتى يلتقاني فأجزيه بها" (رواه الإمام أحمد).

إن الأعضاء الذي حصل للملائكة الكتبية، إنما هو بسبب أن هذا العبد قد حمد الله حمداً موصوفاً بصفة الله المطلقة "كما ينبغي لجلال وجهك وعظيم سلطانك"، وهو ما لا يمكن أن يحيط به عبد من عباد الله علماً، لأنه متعلق بما هو عليه الله "رباً" في ذاته تعالى وصفاته، من جمال وجلال، وبما يفيض عن سلطانه العظيم من تقدير وتديير على الإطلاق. وعلم ذلك هو عين المستحيل، فكان أن فزع المَلَكَانِ إلى الله من هذا التعبير الذي أربكهما إرباكاً. إنما عظمة الربوبية التي توجب الخضوع لله الواحد القهار.

إن هيئة الجمال والجلال في ذات الرب العظيم، تورث العبودية في القلب المؤمن بالله. ومن هنا كان ذلك الفضل الكبير الذي بشر به النبي ﷺ لمن أحصى أسماء الله الحسنى أو حفظها لما لهذه الأسماء من أنوار لا تفتأ تفيض عن ذات الرب سبحانه وتعالى بمعاني الكمال والجلال. قال المصطفى ﷺ: "إن لله تعالى تسعة وتسعين اسماً، لا يحفظها أحد إلا دخل الجنة"، (متفق عليه). والحفظ المذكور في الحديث لا يدل على المعنى الشكلي للفعل، من عدّ أو استظهار فحسب، وإنما يدل على الحفظ بمعنى الاستيعاب القلبي والاستحضار الشعوري كما في قوله تعالى على لسان يوسف ﷺ: ﴿قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ (يوسف: ٥٥)، مشيراً بالحفظ إلى الأمانة وهي معنى قلبي محض.

إن تَمَثَّلَ مقتضيات أسماء الله الحسنى تمثل المحب المتعلق ببابه الكريم يرجو وصاله والنهل من أنواره، هو الذي يفتح الطريق للعبد السائر إلى الله للحصول على الإذن الملكي العالي إكراماً لمحبهه والتعلق بأسمائه.

هي خلق آدم ﷺ. ثم توالى عليه بعد ذلك النعم تترى مما لا يحصى ثناء وشكراً، رزقا ورعاية وهداية... إلخ. ولذلك وجب أن يكون أول ما ينطق به الإنسان -أي إنسان- في حق ربه سبحانه وتعالى هو الحمد والشكر أولاً وقبل أي شيء. ومن عجيب أمر الله الكوني سبحانه، أن أول كلمة نطق بها آدم ﷺ بُعِدَ ما انبعث فيه الروح هي ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (الفاتحة: ٢) (انظر: ابن حبان والحاكم). ولذلك فإن القرآن الكريم -وهو كتاب الله- افتتح بالحمد لرب العالمين، وتمجيد أسمائه الحسنى، ثم بعد ذلك ثنى بالعبادة التي هي نتيجة للربوبية. فكانت سورة الفاتحة وهي فاتحة القرآن.

الربوبية والعبودية

إن توحيد الربوبية هو اعتراف بسيادة الله على الكون والخلق أجمعين، اعترافاً يتضمن الرضى به رباً وسيداً، والإيمان بما له تعالى من صفات الجمال والجلال. فربوبيته سبحانه إنما تعرف من خلال صفاته تعالى؛ ولذلك فقد سمي عز وجل نفسه بأسمائه الحسنى، وطلب منا إحصاءها والدعاء بها؛ أي أن نوحده في إلهيته تعالى بها، وذلك باب العبادة. ومن هنا كان توحيد الإلهية موصولاً بتوحيد الربوبية، وهو منطوق القرآن ومفهومه. قال تعالى: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابٌ﴾ (الرعد: ٣٠). فأثبت الربوبية أولاً من خلال اسمه الرحمن، ثم ثنى بكلمة الإخلاص باب التبعيد. والجميل حقاً أن ربوبيته تعالى تتجلى في أسمائه الحسنى، ومن هنا كان البدء بها في القرآن، وفي كل أمر ذي بال. إن جمال الربوبية المتجلى في جمال الصنعة، وكمال الخلق، وتدفق الإنعام، والفيض على العالمين بالحياة... إلخ. هو الذي يهر القلوب المحبة للجمال، فخضعت له عابدة متبثلة في محارِبِ الإيمان، مقرة أنه "لا إله إلا الله". إن المحب الذي فني في المحبوب إنما حصل له ما حصل لما رآه في محبوبه من خصال الجمال والجلال.

"الله" .. هذا الاسم العظيم، الدال على الذات الإلهية، ينقل وقعه في القلب العارف به تعالى حتى التصدع، قال ﷺ: "ولا يُثْقَلُ مع اسم الله تعالى شيء" (رواه الإمام أحمد). إنه ثقل الربوبية الذي ينزل بجلاله وجماله الذي لا يطاق على الصخر فيجعله دكاً، ﴿فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعْقًا﴾ (الأعراف: ١٤٣)، ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ (الحشر: ٢١).



جمال وجلال.. بجانب الطور الأيمن

السرى. ولذلك قال له بُعد ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا﴾؛ لأن المتمثل لحقيقة "الله"، ﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ﴾ ربوبية وألوهية، لا يملك إلا أن يخضع لله شاكرًا وعابداً. فليكن إذن خضوعاً لا يشرك معه فيه أحداً.

﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا﴾.. تقرير اعتقاد، نعم، لكنه من العبد شعور.. يحتاج إلى مصداق من الأعمال والفعال. وهل يملك من يجد في قلبه شيئاً أن يكتبه؟ خاصة إذا كان هذا الذوق الموجود من الجمال والجلال ما لا يستطيع قلب بشري أن يحتمله سراً إلى الأبد. فلا بد إذن من التعبير، وذلك هو أركان الإسلام الخمسة: النطق بالشهادتين، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصيام رمضان، وحج البيت من استطاع إليه سبيلاً. أعمال وأفعال كلها تسلك بالعبد مسلك الخدمة والطاعة لله رب العالمين، وتشعر صاحبها بمقدار ما يجده في قلبه من الحب، وما يعترف به من إقرار على نفسه، إذ شهد أنه "لا إله إلا الله". فإلى أي حد هو صادق فيما عبر به عن نفسه؟ إنها شهادة على القلب. أفتراه كان صادقاً كل الصدق أم بعضه؟ ولذلك قال عز وجل لموسى: ﴿فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾. العبادة إذن هي "التعبير".. التعبير الظاهر عما وجدته المسلم في الباطن، إذ شهد ألا إله إلا الله. إنها تعبير المحب عما وجد من حب، وأي محب يستطيع الكتمان؟

الصلاة.. أم العبادات

وبقيت الصلاة في الإسلام كما كانت في الأديان السابقة أم العبادات. ولذلك خصها الله بالذكر هنا رمزاً لكل خضوع وخشوع ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾.. وما كل أركان الإسلام في الجوهر -مهما تعددت أشكالها- وهياتها إلا "صلاة"! ولذلك قال النبي محمد ﷺ: "رأس الأمر الإسلام، وعموده الصلاة" (رواه أحمد). فكأنه عليه الصلاة والسلام يقول الإسلام هو الصلاة، لما في معنى الصلاة من جمع لكل مواجيد التعبد والخضوع لله رب العالمين، وذلك هو المقتضى العملي لكلمة الإخلاص "لا إله إلا الله". والترجمة الفعلية للأمر الملكي: ﴿فَاعْبُدْنِي﴾ الذي جاء تفسيره وبيانه بعد مباشرة ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾. فيا لجمال "الذکر" في سياق الصلاة! ذلك التعبير المليء بالإيحاءات الوجدانية، التي تحدد الأحبة بالتراتيل الملتهبة شوقاً لديار المحبوب.

وذكر الله هو مقام الأدب مع الله.. فالعبد الحقيقي هو الذي لا يفتأ يذكر سيده فلا ينساه.. وهل ينساه حقاً؟ إذن ليس بعبد، وإنما العبد من كان دائم الحضور بباب الخدمة، لا يفتأ واقفاً بأدب

ومن أطرف المواقف الإلهية، وأكثرها جمالاً وجلالاً، خطابه تعالى لنبيه موسى ﷺ، بجانب الطور الأيمن.. إنه حدث وجداني عظيم يهز القلب هزاً... موسى تائه في غسق الليل بين الجبال، يسير بأهله، يبحث عن دفء، حتى إذا تفرّد بين الشعاب باحثاً سمع الله يتكلم.. أتدرون ما تفرّوون؟ إنه سمع الله يتكلم.. وتلك حقيقة كونية رهيبية لا تسعها العقول تصورا، ولا القلوب استشعاراً. ولكن الأجل في الموقف أنه يتكلم معه "هو" بالذات... الله الملك العظيم رب الأرضين والسماوات، رب الفضاءات والمدارات... يكلم هذا العبد الضئيل، بل هذه الذرة الدقيقة النائية في الفلوات... هل تستطيع أن تتصور نفسك هناك؟ إذن أنصت لكلام الله: ﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾ (طه: ١٤).

موسى التائه الباحث يسمع متكلماً، فيجده أنه يخاطبه ويعرفه بنفسه، فكانت هذه الكلمات الجليلة العظيمة: ﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا﴾... عبارات شارحة لمعنى الإسلام وعقيدة الإسلام، عقيدة المحبة العليا.. فقد سمى الله نفسه سبحانه باسمه العلم معرفة بذاته "الله". وهو الاسم الجامع لكل الأسماء الحسنى والصفات الغلى.. ثم قرر ما ينبغي أن يعرفه العبد عن ربه: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا﴾، فلا ينبغي أن يسكن قلبك يا موسى حباً سواي، ولا أن تجرد وجدانك لغيري، فمقام الإلهية يقتضي من الخلق الانتظام في سلك الخدمة والطاعة لسيد الكون، الرب الأعلى. وذلك تفرغ القلب من كل المقاصد سوى قصد الله، وتجريده غصنا فقيراً بين يديه تعالى، إلا من أنداء الشوق وخضرة الرضى، تناسب مستحبة لأنسام المحبة الإلهية أنى هبت، انسياباً لا يجد معه العبد كلفة ولا شقاً، بل هو انسياب الواحد راحته ولذته في عبوديته لرب العالمين، واهب الألفاظ الخفية، والأسرار البهية، الملك الحليم ذي الجمال والجلال.

الله.. الاسم الجامع لكل الأسماء

﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ﴾.. هذا الاسم العظيم الجامع لكل معاني الربوبية والإلهية، يقتضي تمثله على مستوى القلب شعوراً بالرغبة والرغبة، وهما صفتان تفيضان عن القلب الذي وجد لمسة الحب، وهو مخ العبودية. وإنما العباد سالكون بين ضعفّي الرغبة والرغبة، والخوف والرجاء. فأنعم به من جمال في السير، وأكرم به من بهاء في



العبودية إلى جانب الأعتاب العليا.. فأني ينسى مولاه؟ أن تصلي يعني أن تكون دائم الذكر لله.. ولذلك كانت الصلاة أرقى تعبير عن حضور القلب مع الله: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾.

تلك معان كلها تفيض عن شهادة أن "لا إله إلا الله". كلمة الإخلاص وعنوان الإسلام لله رب العالمين. وهي الكلمة التي يفرغ إليها المؤمن من الغم والكره، تماما كما يفرغ الصبي إلى أمه عندما يلتم به مكرهه. أتدرون لماذا؟ لأنها ببساطة أقرب الناس إلى وجدانه، ولو لم تكن كذلك لما نادى صبي في الدنيا إذا استغاث "أماه!". إلا أن العبد الذي سكن قصد الرب الأعلى قلبه، وامتلك عليه وجدانه لا يفرغ إلا إليه، بمقتضى "لا إله إلا الله".

هل سمعت يونس عليه السلام إذ التقمه الحوت فغاص في ظلمات بطنه، وظلمات البحر والليل، ثم ظلمة الغم الشديد الضاربة على تلك الظلمات جميعا، ألم تسمع ماذا قال؟ يقول رب العزة حاكيا عنه: ﴿فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ (الأنبياء: ٨٧). لقد كان أول التعبير استغاثة وجدانية ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ﴾.. لا يملك مواجيد القلب إلا أنت! لا محبوب، ولا مرغوب، ولا مرهوب إلا أنت! ثم كان التسييح والتنزيه فالاستغفار... يا سلام... أي جمال هذا وأي كمال؟! وأي أفق كريم فيما يتيحه هذا الدين السماوي للقلب من سياحة وسباحة في عرض الملكوت لاستدرار واردات الأنس والرحموت؟ يونس هذا العبد العظيم الذي أدرك -وهو في بطن حوت ضخم جدا، يخوض به المجهول، في قاع المحيطات الرهيبة- أن القلب إذا امتلأ بنور الله كان الله معه؛ ومن كان الله معه أمن أمنا كليا، فلا يعدو هول البحر والحوت حينئذ مقدار حشرة في مستنقع.. الله أكبر!

حقيقة الشرك وجذوره القلبية

إن شهادة ألا إله إلا الله هي توقيع عقد، وإمضاء التزام، بضمان الهوى لله وحده كما في الحديث: "لا يؤمن أحدكم حتى يكون هوأه تبعاً لما جئت به" (فتح الباري ١٣/٢٨٩)، وكل ما جاء به عليه السلام هو "الإسلام". وقد علمت ما في هذا العبارة من معاني الخضوع للرب الأعلى. خضوع يفرغ القلب مما سوى الله. وهو أمر في غاية العمق الوجداني، والتحقيق الشعوري، ولذلك صعبت كلمة "لا إله إلا الله" على كفار قريش أن يقولوها، وهو أمر طبيعي، فقد أدركوا بفطرهم اللغوية السليمة أن هذه الكلمة تعبيد لمشاعرهم،

قبل أن تكون تعبيدا لأفعالهم. وهو الأمر الذي لم يقبلوه، إذ كان "الشرك" قد ران على قلوبهم فلم يستطيعوا منه فكاكا. وما حقيقة "الشرك" إلا أهواء ومواجيد، سكنت قلوبهم فلم تصف بذلك لربها الملك الأعلى. إن الشرك بهذا الإدراك معنى قلبي كالتوحيد تماما. أعني من حيث إنهما معا شعور يحدث في القلب، وإن كانا متناقضين، كتناقض الحب والبغض، أو السخط والرضى.

فلم يكن من منطلق الأشياء أن تدور معركة، بل معارك مريرة، بين الرسول عليه السلام وبين العرب من أجل أحجار هي الأصنام، التي كانت تعبد من دون الله. بل إن حقيقة المعركة كانت حول ما ترمز إليه تلك الأحجار، من أهواء ساكنة في قلوب العباد. فما كان صمود العرب في وجه الدعوة الإسلامية كل تلك المدة، حتى عام الفتح، حبا في الأوثان لذاتها، وإنما حبا فيما كانت ترمز إليه، وما كان يقع باسمها في قلوبهم من حب لمجموعة من الأهواء، هي الآلهة الحقيقية التي كانت تعبد من دون الله؛ من حب للجاه، وحب للسيادة، وحب للمال، وحب للتسلط على الفقراء والعبيد باسم الآلهة، أو قل باسم الصخور الجامدة. تلك الأهواء إذن هي الآلهة الحقيقية، التي كانت تعبد من دون الله، وما كانت الأحجار إلا تجسيدا لها في عالم المادة، ورمزا لما في عالم الإحساس، ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ﴾ (الجن: ٢٣).

ومن هنا حرص النبي عليه السلام على الإطاحة بأوثان الشعور، قبل الإطاحة بأوثان الصخور! وقد ظل بمكة يعبد الله قبل الهجرة ويطوف بالبيت العتيق وقد أحاطته الأصنام من كل الجهات، لأن عمله حينئذ كان هو إزالة أصولها القلبية، وجذورها النفسية؛ حتى إذا أتم مهمته تلك، كانت إزالة الفروع نتيجة تلقائية، لما سلف من إزالة للجذور ليس إلا. ولذلك قلت: إن الشرك معنى قلبي وجداني، قبل أن يكون تصورا عقليا نظريا.

إن "لا إله إلا الله" -وقد سُميت كلمة الإخلاص- ليست إلا تجريدا قلبيا للهوى حتى يكون خالصا لله وحده. وكل حب تفرقت به الأهواء لم يكن إلا كذبا. والشهادة في الإسلام إقرار من صاحبها على نفسه، وما يجد في قلبه بالتصديق. فانظر أي قرار يتخذه الإنسان، حينما "يسلم" لله رب العالمين، ويشهد "أن لا إله إلا الله"! ■

(٤) جامعة مولاي إسماعيل، ورئيس المجلس العلمي بـ"مكناس" / المغرب.



من أجلك بناء إنسان سليم

النفس.

فإن توقعت

من ابنك النجاح

فسوف ينجح وإن توقعت عدم

التحسن فلن يتحسن. ولي تجربة في هذا الشأن؛ حين كنتُ

أعمل معلمة للصف الثاني الابتدائي كان بين تلاميذي طفل ليست لديه ثقة في نفسه ولا ينظم واجبه ولا يهتم بدروسه، وكنت أرى أن لديه قدرات عالية، بينما كان مستوى تحصيله ودرجاته متوسطة بالنسبة للفصل. فجلست معه وحدثته عن ثقته في قدراته وإمكاناته وأن لديه ما يمكنه من التفوق والتميز، وسألني هل أنا صادقة في ذلك فعلا، فأجبت بالتأكيد، ثم سألني هل أحبه فأكدت له ذلك.

كانت النتيجة مبهرة لي حينما اجتاز اختبار الشهر بعد عشرة أيام تقريبا من هذا اللقاء وحقق المركز الأول على الفصل، هذه ثمرة التوقع الإيجابي والحب. قل "ابني لديه قدرات ومهارات"، ولا تقل "ابني يعاني من مشكلات"، فالسلوك يتغير بتغير وجهة النظر سواء سلبية أو إيجابية.

ناهـد عبد المنعم*

عزيزي الأب عزيزي الأم أعزائي المعلمين والمرئيين.. لما كانت مهمتنا هي بناء الإنسان، وهي ليست بالمهمة السهلة، فإن علينا أن نتعلم ونبتكر ونجدد ونبدع حتى نستطيع النهوض بأمّتنا من خلال هذه النباتات الصغيرة، والتي تحتاج إلى أساليب خاصة في رعايتها وتنميتها بالشكل السليم. لذلك كان علينا أن نتحلى ببعض الأساليب ونكفّ عن الأخرى حتى ننجح في هذا الدور العظيم. وسوف أقوم بتقديم بعض من هذه الأساليب مدعومة بخبرات حية مرت بنا خلال عملنا في هذا المجال.

ليكن توقّعك من ابنك إيجابيا

فالتوقع الإيجابي يؤدي إلى تحسين الأداء وإلى مزيد من الثقة في



كُفَّ عن المقارنة السلبية

الراسب إلى الضعيف أو من الضعيف إلى المتوسط، فبدلاً من إشعار الطالب أنه ضعيف، تصله رسالة أنه نجح في الانتقال إلى المستوى الأعلى. هذه الفئة من الطلاب لم تكن تحلم بالمكافأة والتعزيز أبداً. فقد كانت حكرًا على الممتازين والأوائل، لذلك كانت هذه الفئة لا تتخطى مستواها. أما الأسلوب الجديد فهو يوفر للطالب التعزيز والدافع للتقدم بشكل أفضل، هذا بالإضافة إلى الشعور بالنجاح والسعادة والارتباط إيجابياً. بمصدر التقدير وسبب التعزيز.

أحرص على الروابط الذهنية الإيجابية

نحن حريصون على إكساب أبنائنا الكثير من المهارات والمعلومات، ولكننا نتجاهل الربط بين الانفعالات الإيجابية وما يتعلمه أبنائنا وطلابنا؛ فيجب أن يقرن موقف التعليم أو التربية دائماً بمشاعر مثل "السعادة والتقبل"، فذلك يساعد على سرعة التعلم والاستمرار في السلوك المرغوب فيه.

تصوّر أن الكلمات المطبوعة والتي يتألف منها الكتاب يمكن أن تعرض على التلاميذ كمثيرات لانفعالات إيجابية كالتقبل والأمل، أو السلبية كالخوف والقلق والتوتر.

عرضت عليّ ظاهرة غريبة في إحدى المدارس حيث كانت تعاني أغلب الطالبات في صفوف بعينها من آلام شديدة بالبطن وشعور بالغثيان، وذلك في أوقات معينة أيضاً، وعند توقيع الكشف عليهن لا توجد لديهنّ أية مشكلات عضوية. وتتبع هذه الظاهرة وجد أن أحد مدرّسيهم يعاملهم بشيء من الغلظة، وأحياناً يعاقبهم عقاباً بدنياً، وبالعلاج هذا الأمر انتهت الظاهرة تماماً.

إذا أردت أن يحرص ابنك على عمل معين فلا تربطه أبداً بالعصا والوجه المتجهّم، بل الوجه البشوش والخبرة السارة وكلمة التعزيز... حتى يكون ابنك حريصاً عليه وعلى تكراره.

هذه بعض المهارات التربوية والخبرات التي تساعدنا على تربية أبنائنا في إطار من المشاعر الإيجابية والتي تصل بهم إلى تحقيق النجاح والسعادة على حد سواء. وتذكّر أن استخدام الأساليب التربوية الخاطئة لها تأثير سلبي على النمو النفسي للأطفال، وأنها وراء الكثير من عيوب الشخصية ومشاكل التحصيل الدراسي. فكن عزيزي المرّبي أكثر حرصاً وأنت تربي أبنائك حتى تصل بهم إلى برّ الأمان. ■

لا تقارن ابنك أو تلميذك برفاقه أبداً، فإن هناك فروقا فردية بين البشر؛ ولكن يمكنك أن تقارن ابنك بنفسه، أي ما كان عليه سابقاً وما أصبح عليه الآن. وهذا سيساعدك على تربية وتنمية مهاراته بشكل كبير.

تحدّث إليّ أحد طلابي ذاكراً أنه لن يكون متفوقاً أبداً؛ ذلك لأن أخويه كانا يحققان مراكز متقدمه دائماً، إما الأول أو الثاني. أما هو فكان متوسط الأداء وكانت أمه تركز على ذلك؛ كانت تظن أنها تبث فيه الحماس بينما الواقع أنها كانت تمدّه بجرعات من الإحباط المتلاحقة. قابلت هذه الأم وتحدّثت معها بالأمر وأما يجب أن تكفّ عن ذلك وتقارنه بنفسه، وتبحث عما يميّز به وتعزّزه حتى تعيد إليه تقديره لذاته. وبالفعل تحسّن هذا الطالب كثيراً وزادت ثقته بنفسه.

امنح ابنك فرصاً للنجاح

النجاح يولد النجاح، والفشل يضعف ثقة الطفل بنفسه ويجعل تقديره لذاته ضعيفاً؛ لذلك امنح ابنك الفرص لكي يجرب الشعور بالنجاح المرتبط بالسعادة.. كلفه بمهام بسيطة يستطيع أن ينجح فيها، فذلك يجعله قادراً على إنجاز مهام أكثر صعوبة. ولا تسمح بأن تمرّ بالطفل خبرات فشل متلاحقة حتى لا تنخفض دوافعه تجاه العمل بصفة عامة وربما العزوف عنها تماماً.

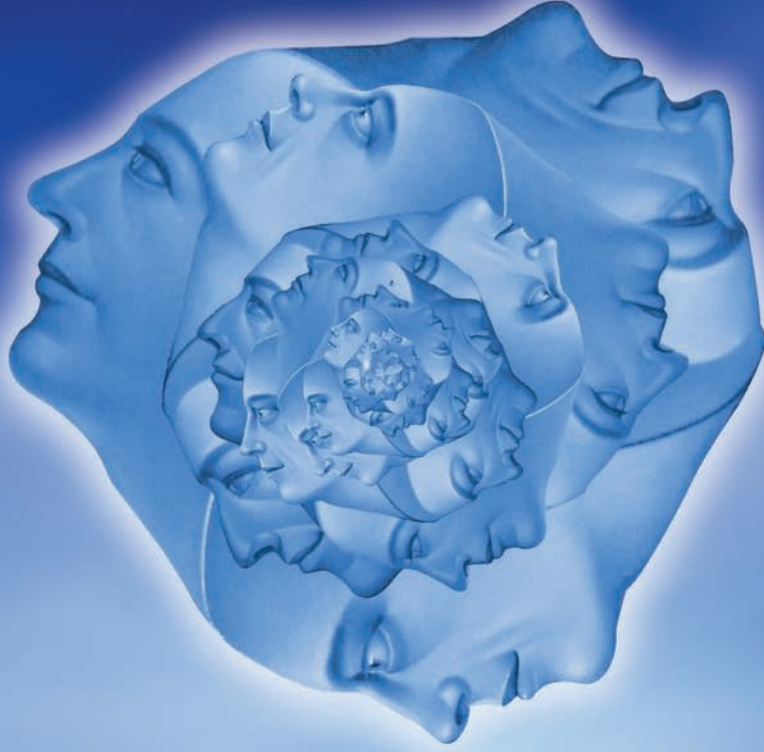
ركّز على أساليب الثواب أكثر من العقاب

إثابة الطفل على السلوك يجعله حريصاً على تكراره ويشعره بالسعادة والرضا، والأهم من ذلك أن الطفل يرتبط بمشاعر إيجابية تجاه مصدر التعزيز والإثابة. أما العقاب فإنه يؤدي إلى كف السلوك ولا يعطي للطفل السلوك البديل المناسب، ونتائج العقاب تستعصي على التنبؤ. فالثواب يقول للطفل "كرّر ما فعلت"، أما العقاب فيقول له "توقّف عما تفعل"، ويفشل في أن يجد للطفل البديل الذي يفعله، وقد يؤدي العقاب في بعض الأحوال إلى تثبيت السلوك بدلاً من محوه، وربما يظهر السلوك ثانياً بمجرد انتهاء الحالة الانفعالية للطفل. وأسوأ نتائج العقاب أن يؤدي إلى كراهية الطفل للعمل الذي أدى إلى العقاب. لذلك عليك أن تستخدم الإثابة أكثر بكثير من العقاب، وعندما تأمر طفلك أن يكفّ عن سلوك قدّم له البديل.

ومن التطبيقات الجيدة التي كان لها أثر جميل تعزيز الطالب عندما ينتقل من مستوى إلى مستوى أعلى، حتى إذا انتقل من

(٤) خبيرة في مجال التربية، جمعية مصر المحروسة بلدي، القاهرة / مصر.





الفروق الفردية في العمل المشترك

د. سليم أيدين*

البعض بحماس زائد قناعاته الإيجابية حيال المشروع، فإن البعض الآخر يعدد مشاكل محتملة واحدة تلو أخرى مركّزاً على نواقص موجودة فيه. أمّا بعضهم فيُعلن أن الوقت لا يكفي لاتخاذ قرار حاسم وأنه يحتاج إلى يوم آخر على الأقل لدراسة الوثائق كلها ومراجعتها من جديد فيؤجل قراره إلى وقت لاحق.

وبسبب هذا التباين في الرؤى، فإن القرارات في عالم الأعمال لا تحسم إلا بعد عدة اجتماعات تُعقد فيما بين فرق عمل يتم تشكيلها بمشاركة الخبراء والمختصين أولاً، ثم تُقدّم النتائج إلى الإدارة العليا مشفوعة باقتراحات حلول مختلفة. والإدارة العليا تُناقش المشاكل حسب حجمها وبتريث، وتقيم الحلول والمقترحات المقدّمة وتفاضل فيما بينها، وإذا لزم الأمر يعاد البحث عن حلول أخرى من جديد. وفيما بعد فإن القرارات المتخذة يتم متابعتها من قبل رئيس الإدارة المسؤول حيث يتدخل فوراً في حال ظهور مشاكل أثناء التطبيق ويأمر بمواصلة الإنتاج وتدفعه.

إن إحدى المشاكل التي تبرز في اجتماعات العمل المشترك ومباحثات المؤسسات هي الفروق الذاتية لدى أفراد الفريق، مما يفتح السبيل أمام صعوبات في الإدارة. وإذا شاركت في إحدى جلسات فريق من هذا النوع كمراقب، فستلاحظ المشاهد التالية:

تباين كبير في الرؤى

بعض الشخصيات تُفضّل الصمت طوال الاجتماع؛ وبعضها دائم الحديث وفي مقدمة الصورة؛ والبعض يضع السلبيات على الأجنحة بصفة مستمرة مشيراً إلى المخاطر المحتملة؛ والبعض الآخر يلجّ على الفوائد التي سيؤدّي إليها المشروع الجديد. وبينما يحدث هذا فإن البعض لا يشارك في النقاش قط، ويغرق نفسه في المستندات والرسومات والبيانات المقدّمة حول المشروع، يقلّب فيها في صمت محاولاً فهمها. وقُبيل انتهاء الاجتماع، بينما يعلن



النمطية الشخصية.. نافذتنا إلى الحياة

إن علم النفس الحديث قد أوضح أن "النمطية الشخصية" أي السمات والمميزات التي يمتلكها الفرد، تحدد إدراكه للأشياء، وتؤثر عليه في اتخاذ قراراته، وتوجهه في طريقة إقامة اتصالاته ومعالجته للمشاكل؛ لأن الإنسان لا يستطيع فهم الأشياء والحوادث على حقيقتها، بل يراها من نافذة نوعية شخصيته الذاتية. ولهذا السبب فإنه يظل خاضعاً لمحددات تلك النافذة.

إن إدراك الحياة من النافذة الشخصية مُريح ولا يحتاج إلى عناء. لذلك نفضل في أغلب الأحيان متابعة الحياة دون أن نتقدم خطوة خارج نطاق هذا النافذة. ولو أن المرء اكتسب قدرة التفرقة بين ما هو عائد لنوافذ الأنماط الشخصية الأخرى، فإنه يستطيع أن يقتنص فرصة النظر إلى الوقائع والأحداث من نوافذ شخصيات أخرى، ويضع نفسه مكان الطرف المقابل. وكذلك نحن لا نشعر بكل ما هو في محيطنا كما هو، بل نحس به وفقاً للطريقة التي تحس بها ذواتنا أو أنماطنا الشخصية. فكل واحد منا يستوعب الحياة من حوله بشكل مختلف ومتفق مع شخصيته. ومن بين الحياة الحافلة بأنواع الجمال اللاهائي يميل إلى شيء معيّن دون الآخر بل وينجذب إليه. فأنت ترى رجلاً يبدل الغالي والنفيس لكي يتأقلم مع الناس ويرافقهم دوماً، بينما ترى آخر يتباعد عن المجتمع ويفضل أن يريح عقله وفكره بالقراءة والمطالعة. والحقيقة أن الأشياء التي تجذبنا والتي نطلق عليها اسم "الهواية"، ما هي إلا إشارات تدل على العناصر الرئيسة في أنماطنا الشخصية.

وقد جاء في القرآن الكريم ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ (الحجرات: ١٣). وإن هذه الأنماط من الشعوب والقبايل التي مر ذكرها في الآية الكريمة يوجد فيما بينها فروق شخصية ونوعيات عديدة. وفي ضوء آية أخرى من القرآن الكريم يتضح أن كل إنسان يتصرف وفقاً لظفرته: ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا﴾ (الإسراء: ٤٨). فالآية تشير إلى أن كل شخص يحل مشاكله حسب فهمه الذاتي وفروقه الفردية.

القطاع الخاص و"زمن الإنتاج والعمل"

إن شكل اتخاذ القرارات في القطاع الخاص لا يشبه شكل القرارات التي تصدر عن القطاع العام أو في الأوساط الجامعية

الأكاديمية؛ إذ لَمَّا كان القطاع الخاص مؤسساً على الإنتاج، فلا يملك إمكانية تحمّل تكاليف تأخر الإنتاج، فليس في القطاع الخاص مفاهيم مثل "لنصبر الآن ومنتظر ونترك الحل إلى الزمن"، ولا مكان كذلك للأفكار التي تطرح عنصر الزمن وقيمه جانباً ولا تضعه في عين الاعتبار.

هذا، ومن أجل تقييم عنصر الزمن في القطاع الخاص تم تطوير ساعة خاصة بهذا الغرض أُطلق عليها اسم "ساعة المؤسسة" أو "زمن الإنتاج والعمل". وإن أهمية هذا الزمن وقيمه لا تقاس بالثواني أو الدقائق المنصرمة، بل يتم تقييمه تبعاً للمكاسب التي تتحقق من وراء الإنتاج المنحز في ذلك الزمن بالذات، وتبعاً للخسارة التي كان يمكن أن تأتي خلال ذلك الزمن لو لم يتم استثماره. فالفرق بين المكسب والخسارة هو الذي يحدد قيمة هذا الزمن. وبالنسبة لهؤلاء الذين يستخدمون "زمن الإنتاج والعمل" فإن عقد اتفاقيات حول استغلال الوقت في غاية الأهمية؛ في حين أن الذين يمحضون حياتهم وفق معايير الساعة العادية، فإن اتفاقيات الزمن هذه أمور غير محبوبة. وفي القطاع العام، حيث يتم تقديم الأنظمة البيروقراطية والتدرج الوظيفي على الإنتاج عادة، فإن هذه الصورة أمر طبيعي وشائع. ولدى المقارنة بالقطاع الخاص، فإنه توجد في الأوساط الأكاديمية حرية واسعة في استخدام عنصر الزمن والمصادر بفاعلية وبشكل إيجابي؛ إذ ما أن يتوفر التمويل المالي للمشروع الأكاديمي حتى يتمكن الباحث من الانطلاق في المشروعات التي خطط لها، كما يمكنه أن يقوم بتجارب حول الفرضية التي طرحها وأن يجري أبحاثه وفقاً لنوعية أدائه. فإذا كان الأكاديمي منتجاً في حد ذاته ككفرد، فلا يمكن أن يستجوبه أحد عما أنتج، فهو صاحب الصلاحية في البحث الذي يديره.

النمطية الشخصية في العمل الجمعي

ولكن إذا ما اضطر الباحث الأكاديمي إلى العمل لدى القطاع الخاص، فإن قواعد اللعبة تتغير؛ حيث إن الشركة مضطرة إلى أن تعمل على إنتاج مشترك يتم بشكل جماعي ووحدي بين فرق وأطقم مختلفة بهدف تحقيق مهام الشركة وأهدافها. بالإضافة إلى هذا، فإن المعيار الرئيسي في المشاريع المطروحة للدراسة والتصنيع هو كونها صالحة للتسويق أو قابلة للبيع. من هذا المنطلق، فإن الخبراء من شتى فروع العلوم يجتمعون في الشركات من حين لآخر حول مائدة ليتبادلوا خبراتهم سعياً نحو إيجاد منتج جديد غير مسبوق أو خدمة جديدة. ولهذا فإن كل شخص في نهاية



وإذا كان دأبه أن يختار الشخصيات التي توافق وتصادق على مبادئه فقط دون أي اعتراض، فإنه سيتمكن من الإدارة نعم، وسيكون متوائماً ومنتجاً مع المؤسسة ومجموعة العمل، ولكن مؤسسته ومجموعته لن تحقق إلا نسبة محدودة من الإنتاج والإبداع والإنجاز الرفيع.

هذا، وإن إدارة الأنماط الشخصية المختلفة وتحويل فروقهم الفردية إلى ثراء أمرٌ صعب المراس. ومن جهة أخرى فإن العنصر الجماعي المتنوع الخواص والمتشكّل من مجموعات ذات سمات شخصية مختلفة يقلق السلطة المركزية في أغلب الأحيان، فيُلقي به جانباً ولا يوضع في عين الاعتبار.

الزعامة والأنماط الشخصية

وإذا كانت الأنماط الشخصية تختلف لدى الزعماء، فإن نوعية الزعامة وطريقة أدائها أيضاً تختلف وفقاً لاختلاف النمط الشخصي؛ حيث إن كل مجموعة نمطية تضع بعداً من أبعاد الزعامة في مقدمة إستراتيجيتها. تذكرنا مثلاً الإجراءات الحياتية للخلفاء الراشدين، أبي بكر وعمر وعثمان وعليّ رضي الله عنهم أجمعين، تجدها أن إجراءاتهم الفذة كانت انعكاساً لطبيعة مجموعاتهم الشخصية التي ينتمون إليها. وتذكروا كذلك "نشرشل" و"هتلر" و"غاندي" و"طورغوت أوزال" وزعماء آخرين، فإنكم سترون أن ستين بالمئة من الاختلافات الإجرائية تعود إلى الفروق الموجودة بين الأنماط الشخصية التي ينتمون إليها. ومن هذا المنطلق، فإن الزعيم العالمي الشامل الذي يتمتع بشعبية جماهيرية واسعة في عصرنا الحاضر، لا تقوم زعامته على مفهوم الشخص الأوحده، إنما تقوم على النظام الشوري والشعور الجمعي المشترك، وعلى الشخصية المعنوية التي تتكون من مجموع الأفراد الذين يحملون السمات المختلفة للزعامة.

تحويل الاختلاف والتنوع إلى ثراء

ويتضح من هذه الحقيقة أن أكثر المؤسسات تجدداً وعطاءً هي تلك التي تأسست من اجتماع شخصيات خبيرة متممة إلى أنماط شخصية مختلفة؛ إذ إن عنصر كل مجموعة شخصية قد يدرك جزءاً ضئيلاً من الحقيقة الشاملة، إلا أن إدراك الحقيقة كاملة يحتاج إلى عمل دؤوب بصورة مجموعات وهيئات استشارية تتكون من أنماط شخصية متنوعة. كما أن التشاور وتبادل الآراء ينبغي ألا يتم عبر بضعة أشخاص من نفس المجموعة فقط، بل يجب أن يتم ذلك عن طريق شخصيات ذات خبرة واسعة، ومجموعات عمل

اجتماعات الفريق يكون مجرباً على إجراء أبحاثه طبقاً لتقسيم العمل في المشروعات التي تم إقرارها على ضوء المعطيات المشتركة التي ظهرت في نهاية هذه الاجتماعات.

وهكذا فإذا أراد شخص أن يعمل مع فرق ومجموعات مختلطة في القطاع الخاص، فإن شركته ستتيح له فرصة للتدريب في عدة ندوات ودورات حول التنمية الشخصية في قسم الموارد البشرية للشركة. وعند سؤال الأفراد الذين شاركوا في هذه الدورات التدريبية والتعليمية عما حصلوه من مكاسب، فقد أجابوا بصفة عامة على النحو التالي: "لقد أدركتُ أن الحوار السليم مع أناس يتمتعون بخبرات علمية متعددة تعود إلى أنماط شخصية متنوعة، قد أنتج مساهمة وظيفية عظيمة وقيمة إضافية أخرى. وتعلمتُ طرق رفع مستوى الذكاء الجماعي في الفريق الواحد. وأول هذه الطرق هو ضرورة تكوين فرق من أفراد ذوي خبرات مختلفة تعود إلى مجموعات ذات قدرات فردية مختلفة أيضاً. والعامل الأهم في رفع نسبة المخترعات والاكتشافات المبتكرة هو تأسيس الحوار بين الأشخاص المنتمين إلى أنماط شخصية ذات فروق خاصة. وثاني هذه الطرق وجوب إجراء تبادل وتجاوز بين العلوم التي تتوفر في الطاقم البشري الموجود من شتى فروع العلوم المختلفة. أما ثالثها فإن كل عضو في المجموعات التي تشكلت على هذا النمط، لا بد أن يعرف على طاقاته ونمط شخصيته الذاتية، ويزود بالتعليم والتدريب الذي يُمكنه من إقامة اتصال سليم مع الأنماط الشخصية المختلفة".

كيف تعرف نمطك الشخصي؟

ولكي يتمكن الإنسان من تحديد المجموعة النمطية التي ينتمي إليها، يجب عليه أن يراقب نفسه ويتابعها عن كثب، ويتبين الميول والرغبات الباطنية التي تتحكم فيه وتوجه أفكاره وتصرفاته. وإذا نظر إلى تصرفات ومواقف ظاهرية فقط، فسيصعب عندئذ التعرف على نمطه الشخصي، لأن المواقف والتصرفات الظاهرية في أغلب الأحوال هي تصرفات قدمت بشكل شعوري وتحت سيطرة المخ الواعي. وفي الحقيقة إذا ما أُريد تشكيل مجموعات استشارية وأطقم عمل ذات تأثير فعال، فالشرط الأول لذلك، ليس جمع شخصيات خبيرة في مجالات مختلفة فقط، بل ويجب كذلك تشكيل فريق من الخبراء متغاير الخواص والصفات من حيث انتماءه إلى أنماط شخصية متنوعة. وإذا كان قائد المجموعة أو مدير المؤسسة لا يتمتع بهذه الرؤية في تقييم الأنماط الشخصية،



ذات فروق فردية تستطيع أن ترى الأبعاد المختلفة للأحداث والقضايا، حتى يتم الوصول إلى الحقيقة الشاملة، ويقل احتمال الإخفاق، ومن ثم يمكن تنمية العطاء ورفع الإنتاج. ألا يُشير رسولنا ﷺ في حديثه "اختلاف أمي رحمة" (رواه الطبراني) إلى أهمية اختلاف الأفكار فيما بين المجموعات البشرية ذات الفروق الشخصية، وذلك في فهم الأحداث وإدراك الجوانب المتباينة لها؟! إذن لا يملك الإنسان قابلية استيعاب الحقائق الكلية التي تتعلق بالوجود والأحداث، حيث إن علم البشر محدود للغاية لأنهم لا يستطيعون تقييم الوجود والأحداث إلا من نوافذهم الخاصة ومن الزوايا التي توفرها لهم أنماطهم الشخصية. وهذا النطاق المحدود لا يمكن تجاوزه إلا بالعمل الوحدويّ والبحث التعاوني والشعور الجمعي والذكاء الجماعي.

معادلة "أنا" و"نحن" .. رؤية مستقبلية

وإن الأعوام المقبلة ستشهد زيادة ملحوظة للقيمة التي تُمنح للعمل التعاوني والشعور الجمعي والذكاء الجماعي. وإن الإنتاج والنماء والتقدم الحاصل من العمل الجماعي، سيزداد أو ينقص حسب العناية التي تولّى للأناط الشخصية المختلفة وتقديم الجوانب المثمرة لديها أو إهمالها.

ومن ثم إذا لم ينتبه المرء إلى هذه الحقيقة فلن يستطيع أن يخرج من سجن أنانيته وشخصيته، بل سيقع في عقدة عدم فهم الشخصيات الأخرى وإيجاباتهم وطريقة قراءتهم للحياة. وأسوأ ما في الأمر أنه سيشكل عقبة أمام التطور واستثمار الإيجابيات الشخصية المختلفة في مؤسسته وأطقمه البشرية، وذلك بسبب المبررات التي ينتهجها وفقاً لشخصيته. وإن طريق الخلاص من مرض الأنانية هو معرفة الشخص لنفسه والوقوف على حقيقته، والتغلب على مواطن ضعفه، والانتقال من الأنانية إلى الذوبان في "حوض النَحْوِيَّة"، أي إن اندماج "أنا" في بحر "نحن" هو الطريق الأوحده لإثراء الحياة والمستقبل، وللخلاص من أزمات الأنانية. ■

المبشر بالخلود

بالخلود بشرت،
والخوف من الزوال والعدم محوت،
والقلوب رويت،
وحزنها مسحت،
وإلى الحب دعوت،
وبه إلى ربك عرجت...
فحبك للإنسان هو الأعلى نغماً،
والأعذب لناً في سمفونية الكون،
فما أعظم كلمتك،
وأجل رسالتك...

(٤) كاتب وباحث تركي. الترجمة عن التركية: أ.د. الصفصافي أحمد القطوري.



جبل قاف



محمد أويار *

من الذهاب إلى فندق. رأى مجموعة من الشباب، اقترب منهم وحاول أن يتفاهم معهم بالتركية ولكن دون جدوى بسبب اختلاف اللهجة. حاول بكل ما لديه من جهد أن يفهمهم أنه أتى من تركيا ويبحث عن فندق. وما أن نطق بكلمة "تركيا" حتى احتضنه بعضهم بشوق الأخ الذي عثر على أخيه بعد فراق سنين. رافقوه إلى فندق متواضع جدا وعبارات السرور تعلق وجوههم وتنعكس على تصرفاتهم المرحبة. قضى ليلة مزعجة لم يستطع فيها النوم من شدة البرد والرطوبة.

وفي صباح اليوم التالي كانت الجرافات تزيل الثلوج المتراكمة على الطرق. لاحظ أن أغلب الأبنية في هذه المدينة ذات طابقين، وأزقتها يشبه بعضها بعضا. رأى في أغلب الميادين والشوارع والأزقة تماثيل "النين" وصور شخصيات هامة وعبارات وطنية حماسية على الجدران، ثم جنود الروس المسلحين... كانت الصورة العامة بالنسبة له كالحلة ورمادية بعض الشيء، إذ لا تزال رموز الشيوعية تسيطر على كل مكان في هذا البلد؛ بينما

حان وقت الرحيل... لم يكن من السهل عليه مفارقة أهله وأصدقائه، ولا سيما أمه. نظر إليها لآخر مرة، فلمح الدموع تنحدر على خديها..

أمسك بيدها في وداعة وحنان وقبّل جبينها بحرارة، قالت له: - رافقتك السلامة، أستودعك الله يا ولدي.

صعد المدرّس الشاب الطائرة دون أن يلتفت إلى الوراء، وما لبث أن هاجت عواطفه وراحت دموعه تتساقط بغزارة.. وداعاً أيتها الأم العزيزة، وداعاً أيها الوطن الحبيب... كلمات أوقدت لهيب الغربة في كبده، فتمتم "طوبى للغرباء.." إنها لمسؤولية عظمى.. إنها لرحلة مقدسة، رحلة إلى ما وراء الورا. بعد لحظات أقلعت الطائرة محلقة في السماء.

كان يركب الطائرة لأول مرة، ويفارق وطنه لأول مرة. نظر إلى السحب المتراكمة من النافذة الصغيرة وغرق في عالم في التأمل. تذكر الجبال الشامخة التي كانت جدته تحكي له عنها في طفولته: "كان يا ما كان في قديم الزمان، كان في الأراضي البعيدة جبل شامخ يدعى جبل "قاف".. ولا يمكن الوصول إليه إلا على ظهر طائر العنقاء..." جبل قاف وطائر العنقاء... ماذا كانت تعني جدته بهاتين الكلمتين يا ترى؟ بدأ يتصور أن جبل قاف هي بلاد القفقاس، وطائر العنقاء هي الطائرة التي تقلّه إليها. إذن، إنه مسافر إلى ديار القصص والأحلام ليصبح أحد أبطالها. خفق قلبه لهذه الفكرة ثم قال في نفسه: "لا شيء يجعلنا عظماء غير خدمتنا لرسالتنا الإيمانية وسعينا لنيل مرضاة ربنا". تالأأت عيناه الواسعتان وشعر بسعادة لا توصف. تذكر أنه يحمل في أعماقه رسالة مقدسة. ولكن هل يستطيع أن يوفيهما حقها ويقدم إلى هؤلاء الناس كل ما في قلبه من حب وحنان؟! ولم لا؟! إنه سيقول لهم:

"مرحبا.. جئتكم بتحية الزهور والورود من تركيا.. جئتكم لإعادة بناء أحوالنا من جديد.. جئتكم لنقيم صرح أرواحنا معاً وننشر روح المحبة والإيمان والفضيلة في كل أنحاء العالم..."

شعر ببرد قارس وراح يرتجف عند أول خطوة خطاها خارج الطائرة.. لم يكن معتادا على مثل هذه الأجواء. كانت عاصمة القفقاس مغمورة بالثلوج وقد ارتدت حلتها البيضاء الناصعة.. خرج من المطار المتواضع وأخذ يسير في شوارع المدينة. إنه لا يعرف أحدا هنا.. قسوة البرد لا تطاق.. احترز ألا ينزل فيقع على الجليد الذي يغطي كثيرا من الأماكن في الأرصفة. لا بد



هو كان لا يحمل سلاحا غير سلاح العلم والأخوة... كان ذهنه منشغلا بإيجاد سبيل لبناء مدرسة هنا.. لإيقاد شعلة إيمانية يستدفعي بها أبناء هذا البلد الشقيق.

سأل عن القصر الرئاسي، ولما علم مكانه اتجه إليه فورا. في البداية أبي الجنود أن يدخلوه المبنى، لكن لما علموا أنه قادم من تركيا أطلقوا شعارات الفرح وأبلغوا أمره إلى الرئيس مباشرة. استقبله الرئيس أمام باب غرفته بترحاب حار. إنه من النادر جدا أن يزور هذه الديار البعيدة أحد من تركيا.

- أتيتم من تركيا إذن.. أهلا بكم..
انبسطت أسارير عاصم وحل السرور قلبه:
- سيدي الرئيس، جئتكم بتحية إخوانكم من تركيا..
قدم للرئيس العلم التركي مع بعض الهدايا التي جاء بها معه.
تأثر الرئيس كثيرا وغلبلته عواطفه واغرورقت عيناه بالدموع:
- شكرا جزيلًا، أنت إنسان طيب وأخ كريم.
تفحص الهدايا بدقة ثم استنشقت رائحتها:
- إنها رائحة تركيا، نعم تركيا..

أخرج "عاصم" من حقيبته مصحفا وقدمه إلى الرئيس،
فنهض مندهشا:
- ما هذا؟!
- المصحف الشريف.

ترقرقت الدموع في عينيه.. تناول المصحف بأدب جم وراح يقبله بشوق عارم. لاذ بالصمت لحظات وقد ضم المصحف إلى صدره بحب.. نظر إلى عاصم بسعادة كبيرة:

- أتيتنا بروحنا يا أخي. أعدت إلينا سراجنا الذي فقدناه منذ عقود. أذكر وأنا طفل صغير أن جدي كانت تقرأ القرآن خفية. لا أعرف كيف أشكرك، كان جدي يحدثنا عن تركيا كثيرا.. مدينة إسطنبول مباركة بالنسبة لنا.. قل لي أيها الأخ العزيز ما الذي أتى بك إلى هذه الديار النائية؟

- أتيت لأقيم مدرسة يا سيدي.
- مدرسة؟!
- نعم مدرسة. أريد أن أقيم مدرسة على غرار مدارسنا المنتشرة في كل أنحاء تركيا.

- لإقامة مدرسة؟! أتيت لوحداك!..
- سأبدأ العمل لوحدي، لكن سيلحق بي من تركيا مئات المتطوعين من المدرسين ورجال الأعمال. سيدي، لقد افترقنا عن بعضنا طيلة سبعين عاما بسبب الشيوعية، لكن انتهت الغربية،

وكان وقت إقامة الجسور من جديد، وتتويج أخوتنا بالعلم والفضيلة والإيمان.

قال الرئيس وقد بلغ منه التأثر مبلغا:
- ما أحمل حديثك يا أخي. أتيت.. لوحداك.. من أجلنا!..
ودون مقابل؟!.. لك كل ما تريد. افعل ما شئت وأينما شئت.
وبعد يومين شرع عاصم بالعمل لإقامة المدرسة في البناية التي خصصها له الرئيس.. راح يعمل بكل ما في وسعه من جهد وطاقة.. عليه أن ينتهي من العمل خلال شهر ويبدأ بالتدريس.
وبعد شهر كامل تم تسجيل خمسين طالبا، ثم وصلت المعدات المدرسية والمستلزمات المطلوبة الأخرى. وهكذا فتحت أولى مدارس المحبة في ديار القفقاس. كان عاصم يهتم بالتدريس وشؤون المدرسة في آن واحد، فلا يدرى كيف يمضي الوقت، لكنها كانت أسعد أيام حياته على الإطلاق رغم كثرة المشاغل والإرهاق. وفي أحد الأيام جاءه إسماعيل، أحد طلابه المجتهدين ودعاه إلى زيارة أهله في القرية. لم يستطع عاصم أن يرفض دعوة تلميذه الأثير:

- ولكن كيف سنذهب؟
- على عربة الجليد يا أستاذ.
كان الثلج والجليد يغمران كل مكان.. والضباب يغطي قمم الجبال.. لأول مرة يركب عربة جليد، شعر بالخوف والقلق في البداية ثم بالبرد الشديد الذي أوشك أن يجمد يديه وقدميه.
- كم يستغرق الطريق إلى القرية؟
- ساعتين...
- ماذا!.. إسماعيل، كل يوم تقطع هذه المسافة لتأتي إلى المدرسة؟

- أجل.. إنها رغبة أهلي.
كان الطريق موحشا وكان الظلام يلقي بظلاله الكثبية على كل شيء مع شدة البرد. بعد ساعتين قال إسماعيل:
- وصلنا، ها هي قريتنا.

وأشار إلى أضواء القرية التي تتلألأ في جوف الظلام. شعر عاصم أن يديه ورجليه قد تحدرتا تماما من البرد. فما استطاع النزول من العربة إلا بمساعدة تلميذه.

فُتح الباب ببطء وظهرت امرأة طاعنة في السن متلفعة بوشاح من صوف غليظ تمسك بيدها مصباحا، قالت مبتسمة:
- أهلا أهلا تفضلوا.

كانت جدران غرفة الجلوس مغطاة بالسجاجيد التي تبعث دفئا محببا في النفوس والأبدان. جلس عاصم على أريكة



متواضعة.. كان يتألم من خدر رجليه ويديه. جلست العجوز قبالتة وراحت تقرب المصباح من وجهه لتراه جيدا... فقال لها إسماعيل وهو يبتسم:

- جدتي إنه معلمي الأستاذ عاصم.

- من أين؟

- من تركيا

تجمدت في مكائها دون حراك، ارتجفت يداها:

- جدتي... ما بك، هل أنت بخير؟!

أمعنت النظر مرة ثانية في حيرة ممزوجة بالدهشة وقد شحب وجهها واضطربت حركاتها وامتألت عيناها بالدموع. تمتت بتأثر عميق:

- أنا أعرف هذا الوجه...

انفض عاصم باستغراب، بينما برزت الدهشة على ملامح حفيدها أيضا.

- نعم أعرفه.. إنه هو.. هو..

أرعى الصمت سدوله على أطراف البيت لحظات. فلم تستطع الجدة الوقوف أكثر على قدميها، فجلست دون أن يفارق بصرها وجه عاصم.. تنهدت في حسرة:

- لم نستطع مقاومتهم، كانوا مسلحين، يقتلون كل من يعترض طريقهم على الفور. لم تمنح تلك الأيام في ذهني أبدا.. أيام الانقلاب الشيوعي في عهد "لينين". كنت صغيرة وكان الوقت بعد منتصف الليل. استغرقت في نوم لذيذ مع صوت أمي التي كانت تحكي لي قصة الأمير الذي يأتي من وراء جبل قاف على طائر العنقاء لينقذنا من المآسي التي نعاني منها. وإذا بصרחات أفلقتني من النوم، رأيت الدبابات تدوس كل ما يعترضها في الأزقة، والجنود يطلقون الرصاص على أبناء القرية. وضعونا في عربة قطار للحيوانات نساء ورجالا صغارا وكبارا...

ابتلعت ريقها وسكنت ثم ركزت بصرها على الجدار واستطردت:

- ما نسيت تلك الليلة يا ولدي. القطار يسير، والثلج يغمر الأرض، والبرد قارس. كنت أبكي من الجوع. مات أعمامي ومات جدتي وبعض الأطفال بسبب البرد والجوع والتعذيب. "نحن في المنفى يا حبيبي، وسوف نعود إلى وطننا يوما"، هكذا كانت أمي تقول لي. كانت الشيوعية والمنفى نفس الشيء بالنسبة لي.

انعدت الكلمات في حلقها:

- وبعد سنوات مات أبي وأممي، وبقيت وحيدة في هذه الحياة. ولكن ما نسيت كلام أمي أبدا "سوف نعود إلى وطننا

يوما". عزمْتُ على الهروب فهربت. وبعد عناء كبير وصلت إلى وطني فاستنشقت رائحة ترابه بشوق وشكرت المولى.. كانت القرية خرابا ومنزلنا أنقاضا، وكنت مرهقة جدا فانكشمت في زاوية واستغرقت في نوم عميق.. وإذا برسول الله ﷺ قد أتاني في المنام.. لا أعرف كيف أصف جماله لكم.. لم أشبع من النظر إلى وجهه المضيء، مسح رأسي بيده الشريفة قائلا:

- لا تقلقي، سينتهي هذا الظلم يوما يا ابنتي.

فقلت بألم:

- متى يا رسول الله؟ ولماذا لم يأت أشقاؤنا المسلمون لمساعدتنا؟

- إهم في وضع أسوأ منكم، ومن الصعب أن يأتوا. ولكن سوف يأتي أحفادهم يوما ما.

وفجأة ظهر شاب إلى جانبه، طويل القامة جميل الوجه يشع النور من جميع أطرافه، فأشار الرسول ﷺ إليه قائلا:

- هذا هو أول من يأتي لمساعدتكم. لكنه سيأتي من بلاد حارة، فلا يستطيع تحمل برد دياركم. فأسرعي بنسج جوربين له وقفازين، وقدميها إليه هدية عندما يأتي. "لم أنس ذلك الوجه أبدا..."

قربت المصباح من وجه عاصم والدموع تهطل من عينيها:

- كيف أنسى الوجه الذي كان يضيء عند رسول الله ﷺ مثل الشمس.

لم يتمالك عاصم نفسه وانهمرت دموعه هو الآخر. هرولت الجدة إلى الغرفة المجاورة وفتحت صندوقا قديما وأخرجت منه جوربين وقفازين ثم رجعت مسرعة ومدتها إلى عاصم وعيناها تشعان بسعادة فائقة:

- هيا البسها، إنها لك، إنها ستحميك من البرد. فهي انتظرت قدومك منذ خمسين عاما يا ولدي.

أخذ عاصم هديته العزيزة منها ولبسها وقد غمرته مشاعر غامضة.. ازداد حيرة عندما رأى أنها على مقاس قدميه ويديه تماما.

امتألاً قلبه بالسعادة والإيمان، فما عاد يشعر بالبرد ولا بالغرابة، أحس بدفء الرسالة السامية التي يؤديها والعناية النبوية والرعاية الإلهية التي ترعاه هو ورفاقه الأبطال أنى كانوا. ■

(٥) كاتب تركي. الترجمة عن التركية: نور الدين صواش. وهي قصة حقيقية وقعت في إحدى دول آسيا الوسطى التركية.



شعرية الإصلاح في أدب مصطفى صادق الرافعي

د. عبد السلام أقلمون*

والحل عندهم لا يكون إلا بالعودة إلى معين تراثي يروونه لم يُستعمل بعد كما ينبغي؛ وفيه الحل للشرق المتخلف تخلفا صحيحا وللغرب المتقدم تقدما مغشوشا.

في هذه الظروف وفي معترك هذه الأسئلة المشحونة نشأت أفكار الرافعي، ونمت مقالاته الأدبية مساوقة الوقائع والأحداث، ولكنه ظل في كل ذلك أدبيا يؤمن برسالة الأدب ومفكرا يصنع فكرا أدبيا وأدبا فكريا.

الأدب والأدبية عند الرافعي

لقد نظر الرافعي في الأدب فوجده وسيلة الإنسان الأولى يشهد بها على نفسه أنه إنسان، فما من سبيل أخرى لإخراج الكنه الإنساني وبسط الجوهر البشري على العالم سوى الأدب. وفي تعابيره الجارية والمولدة على نسق الحكمة ما يرفع قيمة الأدب والأديب معا. لهذا لم يكن الرافعي يرى في اللغة مجرد وسيلة للبهرج والزينة، حتى وهو يملك من الوسائل ما يؤهله للترزين والتبهرج، بل يعتبر الكلمة تمثالا للمعاني ينحت المبدع للقارئ كما ينحت الفنان قطعته للرأين.

ولقد كان الرافعي يُنشئ أدبه بين أيدي تاريخ حافل بأسماء ما يزال لكل واحد منها دوي في أذن الزمان، حتى كأنَّ القدر يحض قدره من بين أقدارهم، وهؤلاء هم طه حسين والعقاد وشوقي والمنفلوطي وحافظ والمازني. لكنه امتاز عن هؤلاء جميعا بالإصرار على فكرة كبيرة تبدو واحدة، نشأت بها كل أفكاره الأخرى وهي أن الله بسط هذا الكون لشيئين: الخير والجمال. لهذا فكل كتابات الرافعي ذاهبة في اتجاه إقامة صرح من صروح الخير أو الإطاحة بعرش من عروش الشر؛ لإقامة تمثال من تماثيل الجمال أو لهدم صنم من أصنام القبح. وهو في كل ذلك ملتزم أشد ما يكون الالتزام بحقائق الأدب وشروطه، أي بكل عناصر "الأدبية" كما يسميها النقد الحديث. وهي ذلك القدر من الإمعان الفني الذي مهما عبر عن فكرة أو مذهب لا يتلف من أجلها أنويّة التعبير الفني التي تدل دائما على أنها في ظل الأدب

عاش مصطفى صادق الرافعي مرحلة تاريخية تعج بالأسماء الكبيرة في مجال الشعر والنقد والأدب. وكانت المرحلة واقعة تحت تأثير مظاهر التخلف الكبير الذي يعيشه العالم الإسلامي، في مقابل علامات مشرقة للتمدن الغربي أسرت ألباب الكثير من المفكرين والباحثين خصوصا أولئك الذين قدر لهم أن ينتظموا في بعثات علمية إلى ديار الغرب.

في هذا الجو بدأت تتشكل أسئلة فكرية تلقائية هدت إليها مقارنة طبيعية بين مجالين متناكرين عمراننا وحضارة. فظهر للبعض أن الفضاء العربي والإسلامي تحوّل إلى مجال لاحتضان التخلف وأسبابه، بينما كانت عاطفة الآخرين المتأججة تجعلهم يتهمون الغرب نفسه باعتباره راعيا لهذا التخلف إن لم يكن صانعه. ولكن هؤلاء وأولئك متفقون على أن مشكلة ما استوطنت قلب العالم والإسلامي وفكره، ثم اختلفوا في اقتراح حلول تسمح بتجاوز هذا الدور من الانحطاط. فكانت اجتهادات الباحثين تقودهم إلى اقتراح نوعين من الحلول:

الأول: الارتقاء في أحضان الثقافة الغربية لأنها قادرة على تخلص عالمنا من أمراض الحضارية، كما خلصت الغربيين أنفسهم من ظلمات التخلف والانحطاط والاستبداد.

الثاني: يعتبر الحل الأول عمالة لغرب ما زالت أياديه لم تنفض من دماء الشرقيين بعد أن استباحهم لاستعمارهم طويلا.



والانتماء الأصيل إلى الأدب؛ فالكاتب مهما تناول من موضوعات الفكر والحياة والإنسان فإنه يفعل ذلك وهو في مملكة الأدب لا يغادرها. لهذا فإن أدبه هو بحق الأدب الذي يستحق أن يحمل شعار "الأدب الإصلاحي"، لأن وظيفة الإصلاح عنده لا تجور على أبنية الأدب وأنساقه، وليست محضنا أسلوبيا للتبشير بالأفكار أو عربة تنقل الدعاوى والوصايا؛ بل هي معرض ينسبط فيه الأدب شكلا وروحا، ويتشرب القارئ معاني الإصلاح الجميلة في حلل من أنساق الفن الجميلة.

إن هذا الأديب يصدر في اختياراته الأدبية تلك عن وعي كامل بجد الأدب، والتزامات الأديب جماليا ووظيفيا. وهو ما يظهر في أماكن مختلفة من كتاباته كلما تعرض للحديث عن الأدب أو تناول بالكلام الأدباء: "ومشاركة العلماء للأدباء توجب أن يتميز الأديب بالأسلوب البياني، إذ هو كالطابع على العمل الفني، وكالشهادة من الحياة المعنوية لهذا الإنسان الموهوب الذي جاءت من طريقته (...). وفصل ما بين العالم والأديب، أن العالم فكرة، ولكن الأديب فكرة وأسلوبها؛ فالعلماء هم أعمال متصلة متشابهة يشار إليهم جملة واحدة على حين يقال في كل أديب عبقرى: هذا هو، هذا حدّه. وعلم الأديب هو النفس الإنسانية بأسرارها المتّجهة إلى الطبيعة، والطبيعة بأسرارها المتّجهة إلى النفس. ولذلك فموضع الأديب من الحياة موضع فكرة حدودها من كل نواحيها الأسرار".

يقرر الراجعي أن الأدب قيمة مضافة على العلم -ويقصد بالعلم ما يتناوله الفكر مجردا، أو ما يقتصد عند التعبير عنه من جهة الأسلوب والبيان، فتقدم المعاني والأفكار في الأسلوب المباشر والتقريب البسيط- والقيمة المضافة هي الأسلوب.. أي ذلك الجهد الخاص الذي يفرغه الكاتب في الفكرة لتزداد تألقا وتوهجا، بل هو يعتز به علما، ولكنه العلم الذي يبدأ عند آخر نقطة يقف عندها العلم الطبيعي لأن الأدب يبدأ من الألغاز والأسرار، وينظر في الطبيعة من جهة ما تخفيه وليس ما تعرضه، أو هو بحث في نسغ الظواهر.. أي بحث في "النومين" بتعبير "كانط".

ولا يستطيع أن يصاول الحقائق في تلك التخوم البعيدة غير الأديب الملهّم، الذي أوقف نفسه على التفكير ولكن بعد أن يكون حظّه من الإلهام موافقا لما يستدعيه مثل ذلك البذل ومثل ذلك الجهد.

ومعه. وهذا بتعبير "تودوروف" هو القانون الشعري: "العمل الأدبي تعبير عن شيء ما، وغاية الدراسة هي الوصول إلى هذا الشيء" عبر القانون الشعري".

هذا الشيء الذي يعبر عنه الأدب هو في تقدير الراجعي نفسه المستفاد من التأديب والتأدب، أي تلك الملكة الإنسانية الآلية المسنودة بما راكمه التاريخ من حكم وفوائد وأمثال، وأخرجها في حلل الفن ليسهل قطفها: "ثم لما جاء الإسلام ووضعت أصول الآداب، واجتمعوا على أن الدين أخلاق يُتخلق بها فشت الكلمة، حتى إذا نشأت طبقة المعلمين لعهد الدولة الأموية كما سيجيء أطلق على بعض هؤلاء لفظ المؤدبين، وكان هذا الإطلاق توسعا ثانيا في مدلول "الأدب" لأنه اكتسب معنى علميا إذ صار أثرا من آثار التعليم. ثم استفاضت الكلمة وكانت مادة التعليم الأدبي قائمة بالرواية من الخبر والنفس والشعر واللغة ونحوها، وأطلقت على كل ذلك، ونزلت منزلة الحقائق العرفية بالإصلاح؛ وهذا هو الدور الثالث في تاريخها اللغوي. وهو أصل الدلالة التاريخية فيها".

وهذا الرأي الذي كونه الراجعي حول الأدب وأدواره بالنظر والدراسة، سيتطور بالتطبيق والممارسة. وما زال الراجعي ينجب للأدب فنونا من القول والمعاني حتى وجد نفسه ليس فقط مؤرخا يحكي ويستنتج ما يراه الأدباء أو ما هو في حكم رأيهم حول الأدب وانطباعهم به، بل هو نفسه قد صار أديبا يملأ عين الدنيا وسمعها، مؤهل ليستخرج من ذات نفسه حكما يقضي به حق الأدب على العالم، وكيف يكون الأديب بإزاء صور العالم وأحاسيسه وأذواقه وأخيلته:

"ثم إن الاتساق والخير والحق والجمال، وهي التي تجعل للحياة الإنسانية أسرارها، أمور غير طبيعية تقوم في عالم يقوم على الاضطراب والأثرة والنزاع والشهوات؛ فمن ذلك يأتي الشاعر والأديب وذو الفن علاجا من حكمة الحياة للحياة، فيبدعون لتلك الصفات الإنسانية الجميلة عالمها الذي تكون طبيعية فيه، وهو عالم أركانه الاتساق في المعاني التي يجري فيها، والجمال في التعبير الذي يتأدى به، والحق في الفكر الذي يقوم عليه، والخير في الغرض الذي يساق له (...). وبهذا يهب لك الأدب تلك القوة الغامضة التي تتسع بك حتى تشعر بالدنيا وأحداثها مارة من خلال نفسك، وتحس الأشياء كأنها انتقلت من ذواتها، وذلك سر الأديب العبقري".

ولعل القارئ المتمعن في أدب الراجعي وأعماله، يستشعر ذلك



إن الأدب الحق إذن لا يكذب، ولكنه وهو يباليغ يكون بمثابة المحجر الذي يضاعف موضوعه للعين أضعافا كثيرة حتى ينجلي لها تكوينه وأسراره، وهي لم تكن قادرة على تحقيق ذلك من أول نظرة. فكان الأديب حسب الرافي مجهر الحقائق النفسية والكونية، يخرجها الأديب بعد أن تعمل فيه نوعا من العمل يخلف فيه أثره، فيعكسه هو متأملا متفكرا على أقيسة من أسلوبه الخاص. لهذا فالأديب عند الرافي "يشرف على هذه الدنيا من بصيرته".

ولذلك استحق الأديب عند الرافي هذا التعريف: "ولو أردت أن تعرف الأديب من هو لما وجدت أجمع ولا أدق في معناه من أن تسميه الإنسان الكوني، وغيره هو الإنسان فقط".

الأدب والفضيلة

يعجب قارئ الرافي من هذه الصلة القوية التي تربط مقالاته بعضها إلى بعض، وتجعل المعاني تتكامل بين مؤلفاته، حتى كأنها نص واحد أو ديوان يتعقب معنى الحياة وأسرارها. والرافي نفسه يستشعر ذلك ويذكره غير مرة محيلا على هذا الكتاب أو ذاك أو على هذه المقالة أو تلك مبينا أنه أفاض القول ووسع المعنى. وأدب الرافي غني بـ"طولوجيا" داخلها تنسج بين مقالاته علائق بديعة لما يسميه "الوسيان دلنباخ" التناسل الذاتي.

وسبب ذلك في نظري أن الرافي يكتب في الحقيقة موضوعا واحدا، ولكنه موضوع كبير هو موضوع هذه الإنسانية، أو كما يقول الرافي عن نفسه: "لا أراي وضعت كل كتي ومقالاتي إلا في قصة بعينها، هي قصة هذا العقل الذي في رأسي وهذا القلب الذي بين جنبي".

فكل مقالات الرافي وكل الموضوعات هي تنقيب في أسرار هذا الملكوت الاجتماعي ورغبة في فك بعض ألغازه، ولكن الكاتب لا ينسى وهو بسبيل ذلك الهدف عدته الأدبية ووسائله الفنية، وهي أيضا شأن من شؤون الإنسانية.

وبذلك تتكامل ثنائية الأدب، وتلتحم شكلا ومضمونا لتركيب عملة فنية لها وجهان: الفضيلة والجمال أو الشكل والموضوع. فالفضيلة من منظوره جمال موضوعي، والبيان فضيلة شكلية. لذلك كان هدفه الدائم أن يفرغ كل شحنات الجمال التي يتسقطها من هنا ومن هناك، ليملا بها وجدان القراء فيزدادوا بأدبه فضيلة وجمالا. وإذا عرف شأن هذا المطلب عرف شأن الرافي.

ورغم أن أغلب كتاباته تلبست بإهاب قصصي إلا أنه مع ذلك يعلن عزوفه عن الكتابة الروائية لكونه لاحظ على أغلب النصوص الروائية وقتئذ جنوحها إلى النزول والإسفاف ومخاطبة الغرائز، عوض أن تنشد السمو والارتقاء بالنفس والحياة معا. ولما كان يحس أهمية الحكيم في أداء بعض الوظائف الأدبية هو نفسه مسكون بمواجسها، اضطر إلى أن يكتب مقالا بمثابة إعلان وتبرئة ذمة "فلسفة القصة ولماذا لا أكتب فيها":

"وأنا لا أنكر أن في القصة أدبا عاليا، ولكن هذا الأدب العالي في رأبي لا يكون إلا بأخذ الحوادث وتربيتها في الرواية كما يربى الأطفال على أسلوب سواء في العلم والفضيلة. فالقصة من هذه الناحية مدرسة لها قانون مسنون وطريقة محصنة وغاية معينة، ولا ينبغي أن يتناولها غير الأفاضل من فلاسفة الفكر الذين تنصّبهم مواهبهم لإلقاء الكلمة الحاسمة في المشكلة التي تُثير الحياة أو تثيرها الحياة.. وأما من عداهم ممن يحترفون كتابة القصص فهم في الأدب رعا ع وهمج، كان من أثر قصصهم ما يتخبط فيه العالم اليوم من فوضى الغرائز.. هذه الفوضى الممقوتة التي لو حقتها في النفوس، لما رأيتها إلا عامية روحانية منحطة تتسكع فيها النفس مشردة في طرق رذائلها".

وكأني بالذين لم يدركوا هذه المقاصد تعاملوا مع أدب الرافي على نحو تجزيئي، فأخذوا شذرات من أفكاره ومعانيه نقصت في أذهانهم بالنقص الحاصل بسبب ما بقي من تتامها في المقالات الأخرى. والرجل في بحثه الدائب عن أسرار الجمال والخير يتوسل بكل الطرق، ويطلق أبواب الاجتماع الإنساني، ينقل أفكاره من هنا ومن هناك، فيجعلها تعيش في خياله مدة من الزمن يُكسبها صفة التعالي عن الظرفية المحدودة والأشخاص المعينين، فيخرجها أدبا ساميا يتسلح بالصورة المجازية والتعبير الشعاعي، لتصبح صورة كل زمان وكل مكان وكل إنسان، عوض أن تبقى صورة محل واحد وزمان واحد وإنسان واحد. ■

(٤) أستاذ باحث في المدرسة الوطنية للتجارة، ورئيس شعبة اللغات والتواصل بها، جامعة ابن زهر، أكادير/ المغرب.

المصادر

(١) وحى القلم، مصطفى صادق الرافي.

(٢) تاريخ آداب العرب، مصطفى صادق الرافي.

(٣) الشعرية، تزيطان تودوروف، ت: شكري المبخوت.



صلاة...

عمر بهاء الدين الأميري*

كَلَّمَا أَمَعْنَ الدُّجَى وَتَحَاكَ
شِمْتُ فِي غَوْرِهِ الرَّهِيْبِ جَلَالِكَ

وَتَرَاءْتُ لَعَيْنَ قَلْبِي بَرَايَا
مِنْ جَمَالٍ، أَنْسْتُ فِيهَا جَمَالَكَ

وَتَرَامِي لِمَسْمَعِ الرُّوحِ هَمْسِ
مِنْ شِفَاهِ النُّجُومِ يَتْلُو الشَّنَائِكَ

وَاعْتَرَانِي تَوَلُّهُ وَخَشْوَعُ
وَاحْتَوَانِي الشُّعُورُ أَنِّي حَيَالِكَ

مَا تَمَّاكَتُ أَنْ يَخْرَّ كِيَانِي
سَاجِدًا وَاجِدًا، وَمَنْ يَتَمَّاكَتُ؟!

اسم "هامان" معجزة قرآنية

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لأظنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ (القصص: ٣٨).

أورخان محمد علي *

يقول الدكتور عبد الجليل شليبي الأمين العام السابق لمجمع البحوث الإسلامية إنه لا يوجد أي مانع منطقي من وجود شخص اسمه هامان في عهد فرعون موسى عليه السلام، وشخص آخر بالاسم نفسه في عهد ملك بابل "احشوبروش". ويشير إلى أن قصة الفتاة أستير والملك ووزير هامان قصة خيالية وأسطورية من الأساطير لا حقيقة لها. ويبرهن على ما يقول كالتالي: "إنها (أي قصة أستير) لم تذكر في غير التوراة، والنبينا "عزرا" و"حميا" اللذان كانا من أوائل العائدين من بابل، واللذان قصا قصة السبي البابلي لم يشيرا إلى أستير ولا إلى أي شيء مما جاء في السفر المسمى باسمها، وكذلك المؤرخ الإغريقي "هيروديت" الذي عاصر أكرسيس ودون سيرته لم يشر إلى أستير وأحداثها. وربما كان اسم أستير محرفا عن عشتار، وهذا مما يوضح أن القصة أخذت عن أسطورة بابلية".

أما جواب كتاب "حقائق الإسلام في مواجهة شبهات المشككين" فكان جوابا موجزا، وملخصه أنه من الجائز أن كلمة "هامان" ليست اسما لشخص ولكنه لقب يطلق على "نائب

دأب المستشرقون منذ سنوات عديدة على تكرار شبهة ضد القرآن كانوا يعتقدون أنها شبهة قوية، فذكروا أن ورود اسم "هامان" كأحد المقربين إلى فرعون في عهد موسى عليه السلام خطأ تاريخي. فالتوراة لم تورد اسم هامان عند ذكرها قصة موسى عليه السلام وبني إسرائيل مع فرعون، كما لم يذكر هذا الاسم أي مؤرخ يوناني قديم، ولم يرد اسمه في أي نص تاريخي قديم يتكلم عن تاريخ مصر القديم، ولم يرد هذا الاسم إلا في سفر "أستير" في التوراة، حيث ورد فيه أن ملك بابل "احشوبروش" كان له وزير اسمه هامان، وأن هذا الوزير كان يعادي اليهود الموحدين في بابل بعد الأسر البابلي، وأنه ظلمهم ظلما كبيرا. ولكن اليهود تخلصوا من وضعهم المزري ومن ظلم هذا الوزير بعد زواج الملك من فتاة يهودية حسناء فتنته وسعت لدى الملك حتى نجحت في قتل هذا الوزير والانتقام لشعبها؛ أي إن هامان لم يكن في عهد فرعون موسى عليه السلام في مصر، بل في بابل وبعد ألف عام تقريبا من وفاة موسى عليه السلام، أي يقع القرآن - بزعمهم - في خطأ تاريخي كبير.

فرعون" مثلما يطلق اسم فرعون لقباً على حاكم مصر أو ملكها.

ولكن أفضل من شرح موضوع هامان هو العالم الفرنسي المسلم "موريس بوكاي" في كتابه "موسى وفرعون" (Moise et Pharaon)؛ إذ قام ببحث مستفيض حول قصتي يوسف وموسى عليهما السلام كما وردتا في التوراة وقارنهما بما جاء في القرآن حولهما، وتوصل بعد بحث علمي وموضوعي دقيق إلى أن المعلومات العلمية المتوفرة لدينا تقف بجانب ما جاء في القرآن وتخالف ما جاء في التوراة.

يقول موريس بوكاي: "لقد جاء ذكر هامان في القرآن كرئيس المعمارين والبنايين. ولكن الكتاب المقدس لا يذكر أي شيء عن هامان في عهد فرعون. وقد قمتُ بكتابة كلمة "هامان" باللغة الهيروغليفية (لغة مصر القديمة) وعرضتها على أحد المختصين في تاريخ مصر القديمة. ولكي لا أدعه تحت أي تأثير لم أذكر له أنها وردت في القرآن، بل قلت له إنها وردت في وثيقة عربية قديمة يرجع تاريخها إلى القرن السابع الميلادي. فقال لي المختص: "يستحيل أن ترد هذه الكلمة في أي وثيقة عربية في القرن السابع، لأن رموز الكتابة باللغة الهيروغليفية لم تكن قد حلت آنذاك". ولكي أتأكد من هذا الأمر فقد أوصاني بمراجعة "قاموس أسماء الأشخاص في الإمبراطورية الجديدة" لمؤلفه "أللمند رانك". نظرتُ إلى القاموس فوجدت أن هذا الاسم موجود هناك ومكتوب باللغة الهيروغليفية وباللغة الألمانية كذلك. كما كانت هناك ترجمة لمعنى هذا الاسم وهو "رئيس عمال مقالع الحجر". وكان هذا الاسم أو اللقب يطلق آنذاك على الرئيس الذي يتولى إدارة المشاريع الإنشائية الكبيرة.

استنسخت تلك الصفحة من ذلك القاموس وذهبت إلى المختص الذي أوصاني بقراءته، ثم فتحتُ ترجمة القرآن بالألمانية وأريته اسم هامان فيه فاندعش ولم يستطع أن يقول شيئاً.

لو جاء ذكر اسم هامان فرعون في أي كتاب قبل القرآن، أو لو جاء ذكره في الكتاب المقدس لكان المعترضون على حق، ولكن لم يرد هذا الاسم حتى نزول القرآن في أي نص، بل ورد فقط على الأحجار الأثرية لمصر القديمة وبالخط الهيروغلوفي. إن ورود هذا الاسم في القرآن بهذا الشكل المذهل لا يمكن تفسيره إلا بأنه معجزة، وليس ثمة أي تعليل آخر. أجل، إن القرآن أعظم معجزة".

وكما سبق القول إنه ما من مؤرخ أو كاتب أو نص أشار إلى شخص اسمه هامان كان مقرباً من فرعون مصر في عهد موسى عليه السلام، ولم يكن أحد يعلم شيئاً كثيراً عن تاريخ مصر القديم، لأن العلماء كانوا عاجزين عن قراءة الكتابات المصرية القديمة المكتوبة بالهيروغليفية. وقد اندثرت اللغة الهيروغليفية تدريجياً بعد انتشار المسيحية في مصر حتى انمحت تماماً. وآخر نص مكتوب بهذه اللغة كان في عام ٣٩٤م، ولم يعد أحد يتكلم بها أو يعرف قراءتها. واستمر هذا الوضع حتى عام ١٨٢٢ عندما استطاع العالم الفرنسي "فراجيان فرانسوا شامبليون" فك رموز هذه اللغة التي كان هناك نص مكتوب بها على حجر رشيد (Rosetta stone).

وقد تم اكتشاف هذا الحجر من قبل ضابط فرنسي عام ١٧٩٩م في أثناء الحملة الفرنسية على مصر في قرية رشيد بمحافظة البحيرة. كان هناك نص يمجّد فرعون مصر وانتصاراته ومكتوب بثلاث لغات هي: اللغة الهيروغليفية، واللغة الديموطيقية (وهي اللغة العامية المصرية القديمة) واللغة الإغريقية. وكان تاريخ الكتابة يعود إلى عام ١٩٦ ق.م. وساعد وجود هذه اللغات الثلاث العالم الفرنسي على فك رموز اللغة الهيروغليفية. فقد قام بمضاهاة هذا النص بالنص الإغريقي ونصوص هيروغليفية أخرى حتى نجح في فك رموز الهيروغليفية، لأن النص اليوناني كان عبارة عن أربعة وخمسين سطراً وسهل القراءة. وهذا يدل على أن هذه اللغات الثلاث كانت سائدة إبان حكم البطالسة الإغريق لمصر.

وبعد حل رموز الكتابة الهيروغليفية علمنا من الكتابات الموجودة على عدد من الأحجار الأثرية العائدة للتاريخ المصري القديم وجود شخص مقرب من فرعون مصر في عهد موسى عليه السلام كان مسؤولاً عن البناء اسمه "هامان". وهناك حجر من هذه الأحجار المصرية القديمة ورد فيه هذا الاسم وهو موجود في متحف "هوف" في "فينا" عاصمة النمسا. ■

(٦) كاتب وباحث تركي.

المصادر

(١) حقائق الإسلام في مواجهة شبهات المشككين، المجلس الأعلى، مصر.

(٢) مفتريات المبشرين على الإسلام، د.عبد الجليل شليبي.

(٣) عبقرية الحضارة المصرية القديمة، أحمد محمد عوف.



آثار الرسول في جناح الأمانات المقدسة في متحف قصر طوب قابي بإسطنبول

ع
عودتنا "دار النيل للطباعة والنشر" التركية على إنجاز كثير من الأعمال المتميزة في شتى شؤون المعرفة. ولعل من أهمها وأعظمها أثرا وقربا إلى قلوب شعوب العالم الإسلامي قاطبة هو هذا السجل الحافل بمحتويات جناح الأمانات المقدسة في متحف قصر طوب قابي بإسطنبول الزاخر بآثار عظماء الإسلام وما تركوه من إرث للأجيال اللاحقة على مر التاريخ، وعلى رأس هذا الإرث ما تركه سيدنا رسول الله ﷺ.

ومن نافلة القول أن نذكر أن إسطنبول بعراقتها التاريخية، وبكونها ظلت عاصمة للعالم الإسلامي ما يقرب من خمسة قرون، كانت تسعى بجدية منقطعة النظير للبحث عن هذه الآثار واقتنائها وجلبها من أي مكان في الأرض لحفظها والعناية بها في قصر هو من أشهر قصور العالم في غناه بالآثار الإسلامية، وهو قصر طوب قابي. لقد وجدت إسطنبول في هذه الآثار ولا سيما ما يخص منها آثار سيدنا رسول الله ﷺ قداسةً تحرص عليها كما تحرص على ماء عينيها. لذلك فقد أودعت هذه الآثار محفظات غاية في الإتقان لكي تصون هذه اللآلئ سليمة من عاديات الزمن وتقلبات الأحوال.

وقد بلغ من احترام الملوك المسلمين والسلاطين العثمانيين لهذه الكنوز التي تخص العالم الإسلامي برمته أنهم كانوا يجمعون ما يتناثر عليها من أغبرة في قارورة زجاجية ثم يودعونها أعماق بئر داخل قصر طوب قابي خصص لهذا الغرض، خوفاً من أن تصبح مداس أقدام عن طريق السهو والخطأ مما يחדش الاحترام الذي تكنه الصدور لهذه الأمانات.

ومن أهم ما يفخر به متحف طوب قابي على متاحف الدنيا احتواؤه على بعض من آثار سيدنا الرسول عليه السلام ومنها برده الشريفة، وبعض سيوفه، ورايته العقابية الشريفة؛ وتيمناً بشكل المحفظة التي كان لها شرف الحفاظ على البردة الشريفة فقد صُمم غلاف الكتاب بفتية عالية على منوالها وبالشكل نفسه. ولأهمية هذا الكتاب لدى المؤرخين والباحثين والكتّاب فقد ترجم من اللغة التركية إلى العربية والإنجليزية.

جزى الله تعالى الأستاذ حلمي أيدين مؤلف الكتاب خير الجزاء على هذا الصنيع العظيم، وجزى الله مترجمه إلى العربية الأستاذ محمد صواش، وكل من أسهم في إعداد هذا السجل الوثائقي بشكله الفني والجمالي. ■



دار النيل

مركز التوزيع فرع القاهرة:
٧ ش البرامكة، الحي السابع،
مدينة نصر - القاهرة / مصر

تليفون فاكس: +2022619204

محمول: +20127874552



- سجل يضم بين دفتيه كنوز أعظم إنسان ﷺ وطئت قدماه الشريفتان الأرض.
- صورة غاية في الجمال للبردة الشريفة تحلي صدر هذا السجل.
- صور مع شروح وافية لما تركه الخلفاء الراشدون من آثار عبر التاريخ.
- متحف متنقل بالآثار الإسلامية لا يستغني عنه سائح ولا مقيم.
- قطعة جمالية وفنية رائعة تفخر المكتبات بوجوده بين أهم كتب التراث لديها.



حراء

مجلة علمية ثقافية فصلية

www.hiramagazine.com

مصر: ٧ جنيهات • تركيا: ٥ ليرات • أوروبا: ٣ يورو • أمريكا: ٤,٥ دولار

يا رحمة للعالمين

أمواتٌ من موثم قاموا حين لامستهم أنفاس الحياة منك..
وقلوب من هجعتها انتفضت حين سمعت منك النداء.. وكم من نفوس ارتوت من
طَلِّ نَفْسِكَ، وندى روحك.. أما تعاليمك فكانت ولا زالت تحرك الأفهام،
وتثير العقول، وتحدثُ مدًا فكريًا سيظلُّ يمتدُّ ويمتدُّ إلى آخر الزمان...

